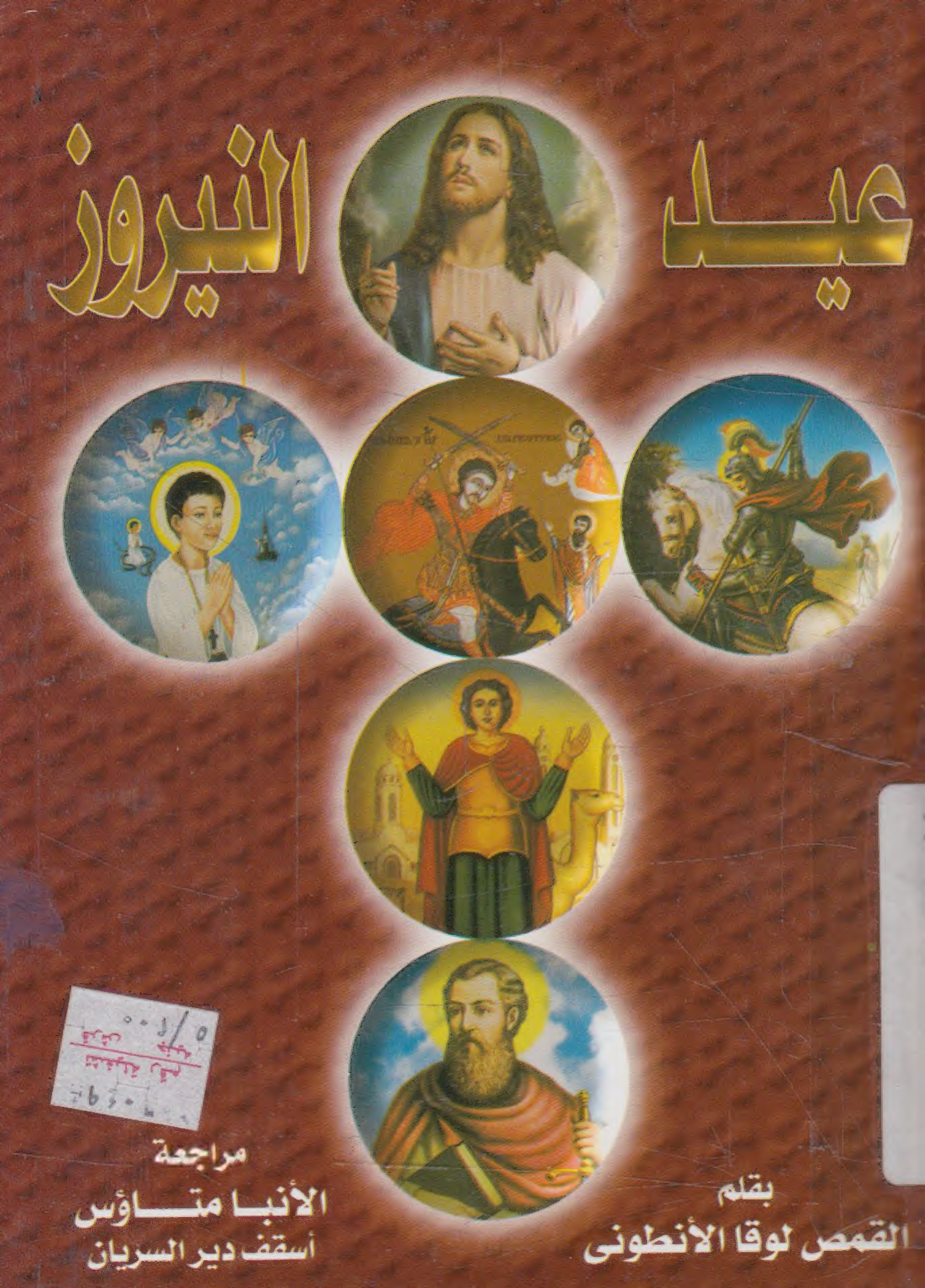

عيد النيروز
مراجعة
الأنبا متاؤس
أسقف دير السريان
بقلم
القمص لوقا الأنطونى

عيد النيـــروز

بقلم

القمص لوقا الأنطونى

الكتاب : عيد النيروز

المؤلف : القمص لوقا الأنطونى.

الطبعة : الأولى سبتمبر ٢٠٠٠م.

المطبعة : طبع بشركة هارمونى للطباعة ت : ٦١٠٠٤٦٤ (٠٢)

النشر والتوزيع : مكتبة المحبة ت : ٥٧٨٢٩٣٢

الجمع : شركة فاين ت : ٤٨٢٤١١٣

رقم الإيداع بدار الكتب : ١٣٢١٨ / ٢٠٠٠م.

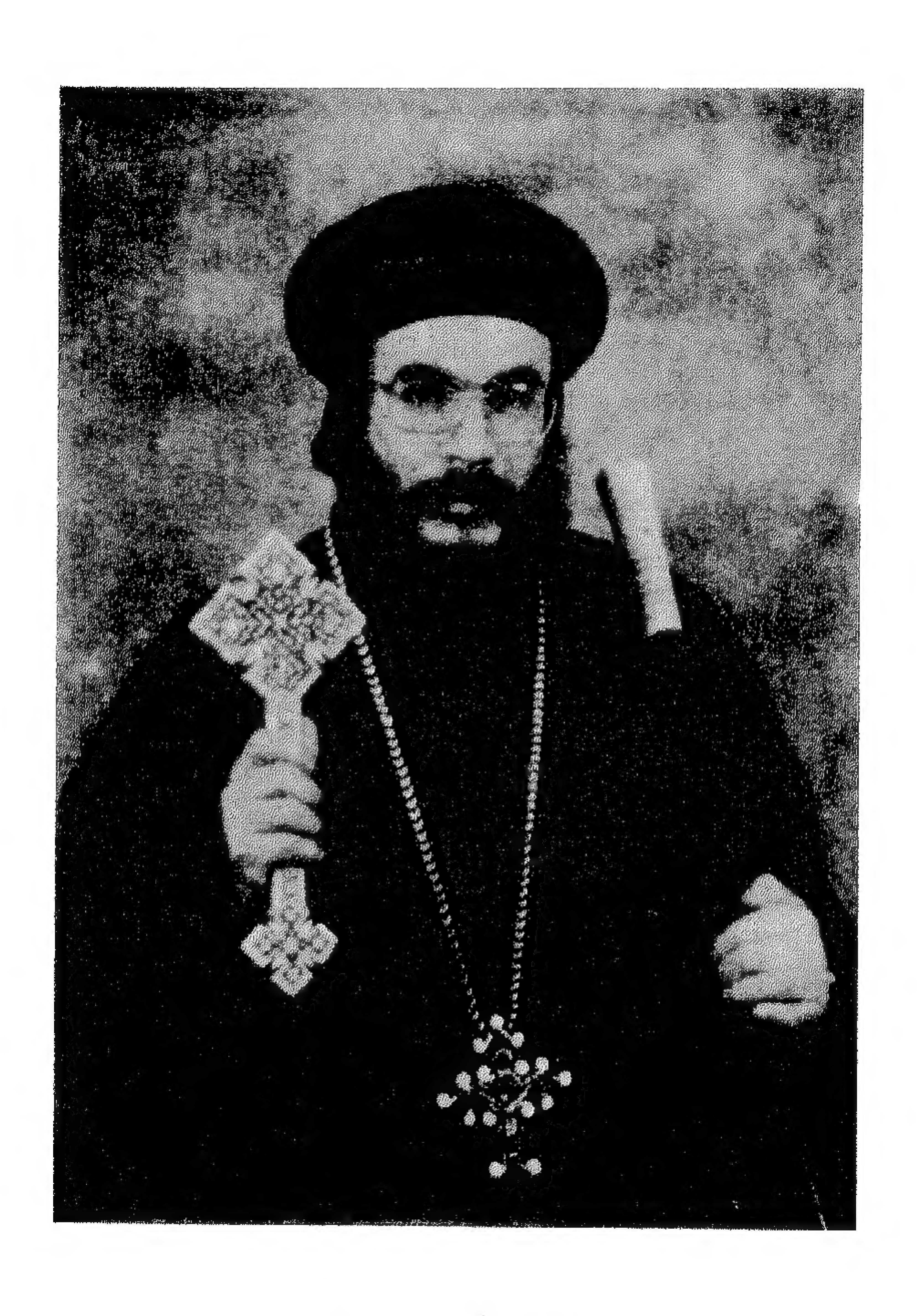
الترقيم الدولى : 977-12-0528-5



صاحب القداسة والغبطة

البابـا شنـودة الثالـث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



نيافة الأنبا يسطس

باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد آمين
مقدمة

«لأنادى بسنةٍ مقبولةٍ للربِ» (إش ٦١ :٢).

عرف قدماء المصريين السنة الشمسية وشهورها (منذ عام ٤٢٤١ ق.م) واستخدمها الأقباط فى تقويمهم المسمى (الشهداء) منذ عام ٢٨٤م. وهو العام الذى تولى فيه الإمبراطور الرومانى العاشر دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) وهو أشد الأباطرة ظلماً واضطهاداً للمسيحيين ولا سيما الأقباط فى مصر. حيث قتل فى مصر...ر٨٤٠ شهيداً، وظل تقويم الشهداء معمولاً به رسمياً فى مصر حتى عام ١٨٧٥م حينما استبدله الخديوى إسماعيل بالتقويم الإفرنجى (الميلادى) بناء على نصيحة الأجانب. أما التقويم القبطى فقد بقِىَ تقويماً هاماً.

النيروز : معربة عن كلمة النوروز الفارسية ومعناها "اليوم الجديد" أو "رأس" أو "أول السنة" ويراد بها أول يوم من شهر توت من كل سنة.

أول من احتفل بالنيروز ـ هو مينا ـ أحد ملوك مدينة منف وكان الاحتفال به رسمياً سنة (٤٠٠٠ ق.م) ويحتفل الأقباط اليوم (الاثنين ١١ سبتمبر ١٧١٧ للشهداء) "وهذا الشهر يكون لكم رأس الشهور هو لكم أول شهور السنة" (خر ١٢ :٢).

وفى هذا اليوم يودعون عاماً ـ لا يعود ـ ويقابلون عاماً يرجون فيه كل خير وإسعاد "لأنادى بسنةٍ مقبولةٍ للربِ" (إش ٦١ :٢).

جاء يوم النيروز لعام ١٧١٧ "كللت السنة بجودك وآثارك" (مز ٦٥ :١١).

وهو اليوم التاريخى الذى تحتفل به الكنيسة لإحياء ذكرى شهدائها الأبطال المجاهدين الأبرار الذين ضحوا بحياتهم الغالية فى سبيل نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق، ورفع إشارة الصليب المقدس فى هذه الديار المصرية "ولنحاضر بالصبر فى الجهاد الموضوع أمامنا" (عب ١٢ :١).

قال العالم المؤرخ اليونانى هيرودوتس :

(والمصريون أول من وضعوا للشهور أسماء خاصة) وأسماء هذه الشهور هى : توت. بابة. هاتور. كيهك. طوبة. أمشير. برمهات. برمودة. بشنس. بؤونة. أبيب. مسرى. النسئ أو الشهر الصغير.

ونحن نعتز كل الاعتزاز بتقويمنا القبطى العريق العتيق المرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخنا المجيد وتراثنا الزاخر بمفاخر أقدم حضارة إنسانية، حضارة المصرى القديم الممتدة فى حاضر الأقباط، وكنيستهم القبطية الأرثوذكسية، فى كل مناحى الحضارة : فى اللغة، والفن، والموسيقى، والدين وطقوس العبادة، وكثير من العادات والتقاليد.

ولعل من مفاخر كنيستنا القبطية تاريخها العظيم وهو تاريخ حضارتها وتاريخ روحانيتها.

ونحن عندما نقرأ تاريخ آبائنا نرى فيه العظمة الخالدة ونتسم فيه الروحانية العميقة التى كانت لآبائنا وأجدادنا التى ظهرت فى هذا التاريخ الطويل.

وتتميز كنيستنا القبطية بروحانيتها فى طقوسها :

كل طقس من طقوسها وكل ترتيب فيها يحمل معانى روحية، وليس هنا مجال الكلام عن هذا بالتفصيل. كل حركة فى الكنيسة، وكل حركة يتحركها الكاهن، وكل طقس من طقوسنا يمارسه الشماس والشعب، وكل حركة فى القداس أو كل حركة فى الخدمات الطقسية الأخرى من المعمودية إلى الميرون إلى... إلخ كل حركة لها معنى بل معانى روحية بعيدة المدى.

ومما يميز كنيستنا أنها لم تغير فى نظام عبادتها ولم تتزحزح عن تراثها القديم ولم تختصر كما اختصر غيرنا تمشياً مع نداءات المدنية ولا يزال قداسنا بأنغامه وألحانه وألفاظه القوية العميقة يستغرق وقتاً مناسباً.

وقديماً قال أفلاطون : اطلب جودة العمل ولا تطلب سرعته فإن الناس لا يسألون فى كم فرغ، بل يتأملون جودته وإتقان صنعته.

وهل يعلم هؤلاء المتذرعون بضيق الوقت عن طول القداس فى يوم الأحد أن يوم الأحد هو "يوم الرب" (رؤ ١ : ١٠)، ولابد للقداس أن يأخذ وقته المناسب فى يوم الرب، فى اليوم الذى خصصه لعبادته.

على أن هؤلاء الذين يطالبون باختصار وقت العبادة هم بعض الفاترين من الناس. ولكن مازال شعبنا القبطى الأصيل العريق، على سجيته فى محبة العبادة وروحانية العبادة ومازال الأتقياء فى بلادنا كثيرين ممن يحزنون إذا رأوا إهمالاً واختصاراً مخلاً فى العبادة، تمشياً مع روح العصريين من الفاترين، وما زال الكثيرين لا يستمتعون بالقداس وسائر الخدمات الدينية مالم تؤد على أصولها الفنية الدقيقة، وطبقاً لأوضاعها الطقسية الفنية الروحية كما رتبتها الكنيسة المقدسة.

إن علينا إزاء الأجيال الآتية : أن نحافظ على تراثنا القديم ولا نفرط فيه، ولا نهمله، ولا نزيد عليه أو ننقص منه (رؤ ٢٢ :١٨، ١٩).

هذه هى الأمانة فى الوديعة التى تسلمناها من آبائنا وأجدادنا والتى تقتضينا أن نسلمها سالمة بغير مساس بها إلى الأجيال الآتية :

هذا هو صوت المسيح الرب إلينا كما يعلنه فى سفر الرؤيا : "إنما تمسكوا بما هو عندكم إلى أن أجئ" (رؤ ٢ :٢٥) "كن أميناً حتى الموت، وأنا أعطيك إكليل الحياة" (رؤ ٢ :١٠).

تلك بعض دلائل روحانية كنيستنا القبطية الأرثوذكسية بها فى حياتنا. ونعلم بها أجيالنا الصاعدة ونبشر بها الفاترين والبعيدين.

وعلينا أن نحفظها ونحافظ عليها ونتمسك بها وبأهدابها ولا نفرض فيها. إننا إذ حفظناها فإنها تحفظنا لأننا بها نحيا قديسين. "وبدون القداسة لن يرى أحد الرب" (عب ١٢ :١٤).

بشفاعة والدة الإله القديسة الطاهرة العذراء مريم وبطلبات أبينا **القديس العظيم الأنبا أنطونيوس** وبصلوات صاحب **القداسة البابا شنودة الثالث** وشريكه فى الخدمة الرسولية نيافة **الأنبا يسطس**.

ولإلهنا ولربنا المجد دائماً أبدياً آمين.

القمص لوقا الأنطونى

١١ سبتمبر ٢٠٠٠ } **عيد رأس السنة القبطية للشهداء**
١ تـــوت ١٧١٧ }

الفصل الأول
شهور السنة المصرية القديمة القبطية

سُمِيَ المصريون القدماء شهورهم بأسماء آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى الزمن الغابر. وهذه الأسماء تتفق مع فصول السنة ومواسم الزراعة وحالة الطقس وعلى ذلك بنوا معابد وكرسوها لعبادة تلك الآلهة فكانوا يقيمون الاحتفالات لعبادة كل إله فى الشهر المسمى باسمه وهى:

١ ـ توت : بالقبطى البحيرى Θωουτ وبالقبطى الصعيدى Θοουτ وهو رأس السنة القبطية المباركة. وأصل اسمه مأخوذ من الإله (تهوت) (إله الحكمة) وكان يسميه المصريون القدماء إله الحكمة ورب القلم ومخترع الكتابة ومقسم شهور السنة المصرية (٤٢٠٠ ق.م) وكانوا يحتفلون به عن بكرة أبيهم بإقامة الاحتفالات العظيمة فى أنحاء القطر تعظيماً لعيد هذا الإله الذى كان يقع فى اليوم الأول منه وظل الاهتمام بهذا العيد قائماً وبلغ أقصاه فى عصر المماليك وكان الاحتفال الرسمى به يستمر أسبوعاً واستمر الحال كذلك حتى ارتقى الظاهر برقوق فأمر بمنع الاحتفال به عام ١١٠٠ ش لتطرف الغوغاء فى الحرية إبان الاحتفال به وإلى أن أحياه ثانية المرحوم تادرس بك شنودة المنقبادى سنة ١٦٠٠ للشهداء ١١ سبتمبر ١٨٨٤ ميلادية.

ولا يزال أقباط مصر يحتفلون به ويسمونه (النيروز) وهى كلمة فارسية معناها اليوم الجديد وفى الأمثال : توت أرِو ولا تفوت (يعنى أسقِ الأرض) ويقال (كلْ رطب توت).

٢ ـ بابة : بالقبطى البحيرى Ⲡⲁⲟⲡⲓ وبالقبطى الصعيدى Ⲡⲁⲁⲡⲉ واسمه مأخوذ من إله الزرع (بى نت رت) Ⲡⲓⲛⲟⲩⲧⲣⲱⲧ لأن فيه يخضر وجه الأرض بالزرع وكان له معبدان شهيران أحدهما فى مدينة (بسنديد) القديمة ومكانها اليوم قرية (بسنود) التابعة لمركز قوص بمحافظة قنا والثانى بمدينة بالوجه البحرى مكانها الآن قرية تمى الأمديد بمحافظة الغربية.

وكان هذا الشهر ينسب أيضاً إلى المعبود بتاح خالق العالم ومركزه بمنف جهة البدرشين. وفى الثانى عشر من هذا الشهر تنيح الأب القديس البكر الطاهر مجاهد الشهوة الأنبا ديمتريوس الكرام البابا الثانى عشر واضع قواعد حساب الأبقطى. وفى يوم ٣٠ منه سنة ٣٦٠ ش أيام الفتح العزبى وجدت رأس **القديس مارمرقس الإنجيلى** كاروز الديار المصرية فسلمها عمرو بن العاص لقداسة البابا بنيامين. ويقولون فى الأمثال (إن صح زرع بابة غلب القوم النهابة وإن هاف زرع بابة مايبقاش فيه ولا لبابة) ويقولون أيضاً : (كلْ رمان بابة) ويقال أيضاً (بابة خش وأقفل البوابة).

٣ ـ هاتور : بالقبطى البحيرى Ϩⲁⲑⲱⲣ وبالقبطى الصعيدى

ϩⲁⲧⲱⲣ وتسمى من الآلهة (هاتهور) آلهة الحب والجمال ملكة الفرح والمحبة ويقابلها عند اليونان (أفرودت) وذلك لأنه فى هذا الشهر يحلى وجه الأرض بجمال الزراعة، وكانت تصور هذه المعبودة بصورة امرأة ذات رأس بقرة وأحياناً بصورة بقرة وكان لها معبد شهير بمدينة (تافيترا) ومكانها حالياً قرية دندرة الواقعة غربى مدينة قنا.

وفى السادس عشر من هذا الشهر يبتدئ صوم الميلاد ومدته ٤٣ يوماً وقد ترتب من أيام قداسة البابا خرستوذلوس السادس والستون وكان فى الأصل أربعين يوماً فقط ثم أُضيف عليه ثلاثة أيام فى أوله تذكاراً لمعجزة نقل جبل المقطم. التى صنعها الله على يد **القديس سمعان** الخراز فى عهد قداسة البابا ابرآم بن زرعة السريانى الثانى والستون من باباوات الإسكندرية.

وفى هذا الشهر تزرع الحنطة القمح ولذلك يقال فى الأمثال (هاتور أبو الذهب المنثور). ويقال أيضاً (إن فاتك زرع هاتور أصبر لما السنة تدور) و (كلْ موز هاتور).

٤ ـ كيهك : بالقيطى البحيرى Ⲭⲟⲓⲁⲕ وبالصعيدى Ⲕⲓⲁϩⲕ

واسمه مأخوذ من الإله (كاهاكا) أى أنه إله الخير أو الثور المقدس المعروف عند العامة بالعجل أبيس وكان لهذا الإله معبدان أحدهما بمدينة أبيدوس بقرية العرابة المدفونة بمركز البلينا وثانيهما بمدينة سانسى التى تعرف آثارها الآن بقرية صا الحجر.

ويوافق عيد الميلاد المجيد يوم ٢٩ كيهك فى السنين البسيطة أو الكبيسة (السنة الكبيسة التى تقبل القسمة على ٤ وفيها يكون عدد أيام النسئ ٦ أيام بدلاً من ٥) فيكون عيد الميلاد المجيد يوم ٢٨ كيهك حتى تظل مدة الحمل بالسيد المسيح ثابتة ومتفقة مع مدة الحمل الفعلية (٢٧٥ يوماً) وهى الفترة بين عيد البشارة (٢٩ برمهات) وعيد الميلاد وقد خصصت الكنيسة شهر كيهك لتمجيد السيدة العذراء على ما نالته من النعَمْ وفى هذا الشهر يبلغ الليل نهايته من الزيارة ويقولون فى الأمثال (كيهك صباحك مساك تقوم من فطورك تحضر عشاك) ويقال أيضاً (كلْ سمك كيهك).

٥ ـ طوبة : بالقبطى البحيرى ⲦⲰⲂⲒ وبالصعيدى ⲦⲰⲂⲈ ومعناها غسل أو تطهير وهو ينسب إلى الإله (طوبيا) أى الأسمى الأعلى أو إله المطر وعلى اسمه سميت مدينة طيبة المعروفة بالأقصر.

وتحتفل الكنيسة بثلاث أعياد سيدية خلال هذا الشهر ففى اليوم السادس منه عيد الختان المجيد لربنا يسوع المسيح وفى اليوم الحادى عشر منه أظهر السيد المسيح ذاته بعماده فى الأردن (عيد الغطاس) أو الظهور الإلهى لأن فيه ظهر الثالوث القدوس هكذا : الآب ينادى من السماء هذا هو ابنى الحبيب والابن قائم على نهر الأردن والروح القدس شبه حمامة نازلاً عليه كما شهد يوحنا المعمدان. وفى اليوم الثالث عشر منه عيد عُرس قانا الجليل وهو تذكار الآية الأولى التى صنعها السيد المسيح.

وفى ٢١ منه نياحة **القديسة العذراء والدة الإله**. وأيضاً ٢٢ منه نياحة **القديس العظيم الأنبا أنطونيوس**. وكذلك فى ٢٣ منه سنة ١٥٧٧ ش نياحة **قداسة البابا كيرلس** الرابع أبو الإصلاح الذى بنى كنيسة رئيس الملائكة جبرائيل ومدرستى البنين والبنات بحارة السقايين وغيرهما من المدارس القبطية الأخرى. وتعد مدرسة البنات هذه أو مدرسة للبنات فى جمهورية مصر العربية.

وفى الأمثال (طوبة تخلى الصبية كركوبة من البرد والرطوبة) و (طوبة أبو البرد والعنوبة) أى الآلام. ويقال (اشرب ماء طوبة) .

٦ - أمشير : بالقبطى البحيرى **Ⲙⲉϫⲓⲣ** وبالصعيدى **Ⲙϣⲓⲣ`** وقيل أنه أُخذ من جن الزوابع لكثرة العواصف الترابية.

وفى يوم ٢ من هذا الشهر نياحة **البار الأنبا بولا**. وأيضاً فى يوم ٨ منه عيد **دخول السيد المسيح الهيكل** مع القديسة مريم العذراء ويوسف النجار وعمره ٤٠ يوماً ليصنعا عنه كما يجب فى الناموس وفى الهيكل حمله سمعان الشيخ على ذراعيه وبارك الله وتنبأ عنه هو وحنة النبية بنت فنوئيل وفى هذا الشهر أيضاً يبتدئ الصوم الكبير ومدته ٥٥ يوماً.

وفى الأمثال يقال (أمشير أبو الطبل الكبير، وأبو الزعابيب (العواصف الكثير) (أمشير يقول للزرع سير بلا تعسير القصب يحصل الطويل) ويقال كذلك (اشترى خروف أمشير) .

٧ ـ برمهات : بالقبطي البحيري Ⲫⲁⲙⲉⲛⲱⲑ وبالصعيدي Ⲡⲁⲣⲙϩⲁⲧ وهو ينسب إلى بامونت إله الحرارة وهو الموصوف بالثور المنتصر. وفيه تشتد الحرارة لإستواء المزروعات بحرارته ولذا سماه المصريون أيضاً Ⲣⲟⲕϩⲱⲣⲁ أى شهر الشمس أو الحرارة الصغيرة وفي ٢٩ منه رأس السنة الدينية عند الأقباط لأن في هذا اليوم كان بدء الخليقة وفيه بشرى الخلاص ببشارة الملاك جبرائيل للعذراء بالحبل الإلهي (عيد البشارة) وفيه تمت قيامة المخلص من بين الأموات.

ويقال في الأمثال (برمهات روح الغيط وهات قمحات وعدسات وبصلات) ويقال (اشرب لبن برمهات).

٨ ـ برمودة : بالقبطي البحيري Ⲫⲁⲣⲙⲟⲩⲑⲓ وبالصعيدي Ⲡⲁⲣⲙⲟⲩⲧⲉ وهو مخصص للإله رننو إله الأرياح القارصة أو إله الموت ويصور أحياناً بصورة أفعى نسبة إلى رموته الأفعى المقدسة آلهة الحصاد لأن فيه ينتهي عمر الزرع ويقحل وجه الأرض حيث يوافق هذا الشهر موسم الحصاد.

وفي نهاية شهر برمودة تذكار **شهادة مارمرقس الإنجيلي** كاروز الديار المصرية. وقد سرِق جسد مارمرقس رجلان أجنبيان ونقلاه إلى البندقية أما الرأس فقد بقيِ في الإسكندرية وهو موجود بالكنيسة المرقسية هناك وقد أُعيد جسد القديس في مساء يوم ١٧ بؤونة سنة ١٦٨٤ش الموافق ٢٤ يونيو ١٩٦٨ باحتفال عظيم.

وفى الأمثال (برمودة دق العمودة) ويقال كذلك : (شم وردة برمودة).

٩ ـ بشنس : بالقبطى البحيرى وبالصعيدى Παϣονс
نسبة إلى المعبود لخونسو "إله النور" لأن فيه يطول النهار على الليل.

وفى ٢٤ من هذا الشهر تذكار دخول السيد المسيح أرض مصر مع أمه والقديس يوسف النجار وسالومى.

ويقولون فى الأمثال (بشنس يكنس الأرض كنس) (أى ينتهى حصاد الحقول) ويقال (كلْ نبق بشنس).

١٠ ـ بؤونة: بالقبطى البحيرى Παωνι وبالصعيدى Παωνє (أى الحجر) نسبة لإله المعادن لأن فيه تستوى المعادن والأحجار الكريمة. ويسمى بالحجر لسخونة الجو.

وفى ٢١ منه عيد السيدة العذراء حالة الحديد وتكريس أول كنيسة على اسمها فى فيلبى.

ويقال فى الأمثال (بؤونة تكتر فيها الحرارة الملعونة) ويقال (كلْ عسل بؤونة).

١١ ـ أبيب: بالقبطى البحيرى Єπηπ وبالصعيدى Єπєπ قيل أنه ينسب إلى (هابى) إله الفرح.

ويقولون فى الأمثال (أبيب طباخ العنب والزبيب) (وإن أكلت ملوخية فى أبيب هات لك طبيب) وأيضاً (كلْ تين أبيب).

١٢ ـ مسـرى : بالقبطـى البحيـرى Uecwpн وبالصعيـدى Uecwpн ومعناها ابن الشمس.

وفى الأمثال (مسرى تجرى فيها كل ترعة عسرة) بسبب الفيضان.
ويقال كذلك (كلْ عنب مسرى).

١٣ ـ النسئ : معناهـا فـى اللغـة العقيب. ودُعِىَ باللواحق يونانيا Πaroruenon وعرف بالقبطية بالشهر الصغير Πikorxi `Nàbor
ومدته ٥ – ٦ أيام لاستكمال السنة القبطية : (١٢ شهر × ٣٠ يوماً + ٥ أيام النسئ = ٣٦٥ يوما).

الفصل الثانى
النيروز العيد الوطنى لأقدم أمة

«وهذا الشهر يكون لكم رأس الشهور وهو لكم أول شهور السنة» (خر ١٢ :٢٠).

أولاً : ميلاد توت :

يؤخذ مما ورد فى الآثار عن تاريخ العلامة توت أنه وُلِدَ قبل عصر الملك مينا الأول فى مدينة خمنو التى من بقاياها تلول بلدة الأشمونين التابعة لمركز ملوى بمحافظة أسيوط.

كان توت يرصد الأفلاك من الجبل الواقع غربها بجوار بلدة هور المأخود اسمها من اسم (تهوت) إله الحكمة.

وكان توت يعيش فى قصر فخم تحيط به حدائق غناء شمالى هذا المكان يصرف فيه أوقات الرياضة فى مكان القرية المعروفة الآن باسم منتوت التابعة لمركز أبو قرقاص بمحافظة المنيا. وعند اكتشافه الشعرى اليمانية وهى النجمة المعروفة بالعبور (سيروس) أنور النجوم الثابتة تشرق وتغرب مقارنة للشمس فى بدء الفيضان وهو الذى يتوقف عليه زراعة المصريين وثروتهم.

وقد حفظ المصريون للعلامة توت هذا الجميل فدعوا الشهر الأول من سنتهم باسمه لأنه رأس السنة المدنية وفاتحة باب الخير والبركات

بفيضان نيلهم السعيد الذى هو السبب الوحيد فى إحياء الثروة المصرية لأنها بلاداً زراعية ولا ثروة لها إلا بماء النيل للزراعة بل ويتوقف عليها حياة المصريين.

قال المؤرخ هيرودوتس فى هذا الصدد :

"مصر هبة النيل إذ هو روحها وسير حياتها الزراعية ولولاه لما وُجدت وبقيت جرداء قحلاء بما يجاورها من الصحراء والقفار المتسعة المتنائية الأطراف" أ هـ. ولزيارة احترام المصريين للعلامة توت كانوا يرسمونه وفى يده جريدة من سعف النخل لأنه من عادة النخل وخواصه أن الجريد الخارجى يقلم مرة فى السنة لكى يحل الجريد الجديد محل القديم كما أن أيام السنة الجديدة تحل محل أيام السنة القديمة وتوت معروف عند اليونان بهرمس وعند العرب بادريس والإسرائيليين بأخنوخ والأقباط يحتفلون بذكرى اسم توت فى أول السنة القبطية الزراعية "وذكرى الصديق يدوم إلى الأبد" (مز١١٢ :٦).

وهذا المؤرخ اليونانى القديم هيرودوتس المشهور بأبى التاريخ وهو أقدم مؤرخ ظهر فى العالم قبل السيد المسيح بخمسمائة سنة واشتهر بصدق روايته قال هذا المؤرخ :

إن العلامة توت الذى ظهر فى مصر قبل فجر التاريخ كان أول من أهتم بوضع التقويم المصرى على نظامه المتبع به إلى الآن. ولذلك حفظ له المصريون هذا الجميل ورفعوه إلى مرتبة العظماء وسموا الشهر الأول

باسمه تخليداً لذكراه واعترافاً بفضله "وذكرى الصديق للبركة" (أم ١٠ :٧) "لكل شئ زمان ولكل أمر تحت السموات وقت ولقلع المغروس وقت. صنع الكل حسناً فى وقته لأن لكل أمر ولكل عمل وقتاً هناك" (جا ٣ : ١، ٢ ، ١١ ، ١٧).

ثانياً : تعريف النيروز :

النيروز هو رأس السنة القبطية الذى يوافق أول توت من السنة القبطية والتى تتكون من ١٣ شهراً تبدأ بشهر توت وتنتهى بشهر النسئ.

ويوافق عيد النيروز يوم ١١ سبتمبر من كل عام.. وهو نفسه عيد رأس السنة المصرية القديمة والتى سبقت التقويم الغربى بأكثر من ٤٢٠٠ سنة وهو نفسه عيد وفاء النيل. ويعتبر عيد النيروز عيد الإستشهاد. وكما يقول قداسة البابا شنودة الثالث "رأت الكنيسة أن هذا الإستشهاد يجب أن يكون تاريخاً جديداً لحياة كتبها المؤمنون بدمائهم يوم لقى ربهم عشرون ألفاً من المصريين اختاروا المسيحية لهم ديناً. فى دنيا كانت لا تعرف إلا الوثنية وعبادة الأوثان". هذا وكانت مصر الشعب والحكام يحتفلون بعيد النيروز أروع احتفال حتى أبطله لأغراض سياسية ودينية بعض الولاة فى سنة ١١٠٠ للشهداء ظل الاحتفال بالنيروز ممنوعاً إلى أن فكر فى إحيائه السيد/ تادرس شنودة المنقبادى فكون فى أسيوط جمعية من كبار الأقباط باسم (جمعية حفظ التاريخ القبطى الوطنى بأسيوط) التى كان غرضها السعى فى حفظ التاريخ القبطى وتدوينه فى التاريخ.

وأول احتفال بالنيروز أقامته هذه الجمعية فى أول توت سنة ١٦٠٠ للشهداء ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ميلادية فى أسيوط وكان خطيب الحفلة السيد/ تادرس أفندى شنودة المنقادى وغيره من أعضاء الجمعية. وكان من نتائج ثمار هذه الجمعية أن أصبحت الجرائد والمجلات تكتب على صدر صفحتها الأولى التاريخ القبطى بجوار التاريخين الميلادى والهجرى.

وفى عيد نيروز سنة ١٦٠٣ للشهداء الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٦م أقيم احتفال كبير بأسيوط بدأ بالكنيسة بالصلاة ثم كانت حفلة كبرى تناول فيها بعض الخطباء ملخصاً عن تاريخ الأقباط منذ الفراعنة حتى الآن...وتاريخ المدرسة القبطية بأسيوط وأهمية التعليم للأقباط.. وتناول البعض الآخر أحوال الأقباط وأهمية توحدهم ثم أقيمت تمثيلية عن عيد النيروز وانتهى الحفل بالدعاء للخديو إسماعيل ورجاله ولقداسة البابا ورجال الكنيسة.

واستمرت احتفالات عيد النيروز سنوياً بعد ذلك بأسيوط وفى سائر بلاد القطر المصرى. أما فى القاهرة فمنذ تأسيس جريدة مصر اليومية سنة ١٨٩٥ وحتى انتقال مؤسسها تادرس شنودة المنقبادى فى ديسمبر ١٩٣٥ كانت احتفالات عيد النيروز تقام سنوياً بإدارة جريدة مصر حيث يدعو مؤسسها كبار الأقباط للاجتماع للتباحث فى أحوال الأقباط ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

وكانت توزع على الحاضرين الهدية التوتية. وهى نبذة مطبوعة موضوعها تقرير عن حالة الأقباط والنهوض بهم. والهدية التوتية نسبة إلى شهر توت أول شهور السنة القبطية والتى يهتم بها رجال الزراعة ويضبطون زراعة وجنى محاصيلهم طبقاً للشهور القبطية والجدير بالذكر أن احتفالات جمعية التوفيق القبطية بالقاهرة بعيد النيروز كانت دينية ووطنية يدعى إليها الآلاف من أبناء مصر من مختلف الأديان. وكان أول احتفال لها يوم ١١ سبتمر سنة ١٨٩٣ يوم عيد فيه تمجيد وفيه اعتزاز وأناشيد وتمثليات تتصل بموضوع العيد يحضره إلى جانب رجال الدين آلاف من الشعب تستقبلهم الموسيقى وتوزع على الحاضرين فاكهة الموسم أو فاكهة النيروز من البلح الأحمر والجوافة وغيرها.

وفى نيروز سنة ١٩١٩ خلال الثورة الوطنية بقيادة سعد باشا زغلول كان الخطباء المسلمون والأقباط يتبادلون الخطب والقصائد للحث على الإستشهاد فى سبيل القضية الوطنية وتوثيق عرى المحبة بين أفراد الشعب.

وفى احتفال نيروز سنة ١٩٢١ قررت القيادة السياسية أن يكون الاحتفال بجمعية التوفيق القبطية وأن يكون خطيب الحفل الزعيم سعد زغلول ومن هذا التاريخ استنت الجمعية سنة لا تحيد عنها وهى أن يكون خطيب الحفل من الإخوة المسلمين. وقد ألقى خطاب الحفل الأستاذ مرقس حنا المحامى نقيب المحامين وعضو جمعية التوفيق وكان

مبسك الختام خطاب سعد باشا زغلول وقد استغرق ساعتين تناول فيه كل مسألة لها علاقة بالقضية المصرية.

وفى نيروز سنة ١٩٢٣ بعد عودة سعد باشا زغلول من المنفى كان هو خطيب الحفل وجاء حديثه عن الوحدة الوطنية.

وفى عيد النيروز سنة ١٩٣٦ كان خطيب الحفل أحمد نجيب الهلالى وزير المعارف فى ذلك الحين، حيث قال : "... أحييكم تحية هذا العيد وأرجو أن يكون عيداً مباركاً مسعود الطالع، ليس هذا العيد عيداً للأقباط وحدهم، ولو كان كذلك لاحتشمت فيه حشمة الغرباء، ولكن النيروز هو عيد الأقباط والمسلمين على السواء..".

وفى عيد النيروز سنة ١٩٤٢ شرف الحفل قداسة البابا يوساب الثانى ومصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء وزكى العرابى باشا وتوفيق باشا دوس.

ثالثاً : النيروز وثورة يوليو ١٩٥٢م :

فى ١١ سبتمبر ١٩٥٢م وهو أول عيد للنيروز وبعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م شرف الاحتفال به فى مقر جمعية التوفيق القبطية، اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة وأعضاء المجلس ومعهم على ماهر رئيس الوزراء، وكان فى استقبالهم قداسة البابا يوساب الثانى.

وفى نيروز سنة ١٩٧٣ كان خطيب الحفل عبد المنعم الصاوى وزير

الثقافة والإرشاد ونقيب الصحفيين الأسبق، حيث استهل حديثه قائلاً :
"عندما يدعى مسلم ليكون خطيب الحفل فى عيد النيروز، فهذه هى مصر، مصر القديمة الخالدة، التى استطاعت دائماً عبر العصور أن تتجاوز حدود التعصب إلى جو من التسامح يجعل للعقائد دائماً قداستها فى نفوس المصريين جميعاً.."

وقد ألقى كلمة الختام فى نفس الحفل، صاحب الغبطة والقداسة البابا شنودة الثالث، جاء فيها "فى الحقيقة يا إخوتى ـ إننى عندما حضرت هذا الاجتماع كنت أظن أنه مجرد اجتماع تقوم به إحدى الجمعيات القبطية ـ ولم أكن أظن سيتحول إلى مؤتمر وطنى قومى بهذه الصورة الرائعة..".

وفى نيروز سنة ١٩٨٤م ألقت كلمة الحفل الدكتورة/ نعمات أحمد فؤاد جاء فيها : "نحتفل فى جمعية التوفيق القبطية ـ مسيحيين ومسلمين ـ بالنيروز لأنه عيد مصرى نلتقى فيه ونلتقى عنده بوصفنا مصريين... فنحن مصريون قبل الأديان ومصريون بعد الأديان ومصريون إلى آخر الزمان...".

ومازالت جمعية التوفيق القبطية ـ على عهدها ـ ترعى الاحتفال السنوى بعيد النيروز، باعتباره عيداً وطنياً وقومياً، يعتلى منصة الخطابة فيه أحد الإخوة الأفاضل من المسلمين.

الفصل الثالث
الكرازة المرقسية وأثرها فى مصر والعالم

يقول إشعياء النبى : "فى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعمود للرب فى تخومها" (إش ١٩ :١٩). هذه النبوة تحققت على يد القديس مرقس عندما أسس كنيسة الإسكندرية التى تقع على تخوم مصر.

كان القديس مرقس مبشراً من الطراز الأول مثل القديس بولس الذى يرتبط به تاريخه، نشر البشارة فى كنائس كثيرة، مخلصاً لذاته، ومثل القديس بولس تتلمذ على يد غمالائيل.

وكانت الإسكندرية فى ذلك الوقت سنة ٦٠م عاصمة البلاد ومن أهم مدن العالم ثروة وثقافة وعلماً وتجارة، وكانت ملتقى مشاهير الفنانين والأطباء والعلماء والفلاسفة، وقد أضفى عليها الشعراء والأدباء والأباطرة ألقاباً كثيرة مثل : مدينة المدن، وملكة الشرق، ومدينة الذهب، والجميلة جداً، والسعيدة، والمقدسة، ولكن اللقب الذى بقِى لها واشتهرت به هو المدينة العظمى الإسكندرية.

بدأ القديس مارمرقس بشارته فى مدينة البذخ والترف هذه، ونشر المسيحية بين علمائها وفلاسفتها فكان نصراً عظيماً لها، وإذا بالإسكندرية تضيف مجداً آخر إلى أمجادها وتتحول إلى عاصمة

للمسيحية فى العالم فنقرأ للمؤرخ دلاسى اوليارى Delacg O, Leary فى كتابه (مصر والحضارة) : "إذا كان هناك قطر أو بلد ترك آثاراً عميقة على الديانة المسيحية فهذا البلد هو مصر، أو بعبارة أدق إذا كان هناك مدينة هى بلاشك الإسكندرية". ويضيف إلى ذلك المؤرخ فورستر Forster : (يمكن أن تدعى الإسكندرية قبل أية مدينة أخرى، إنها صاحبة أكبر نصيب فى الجهاد للمسيحية، وفى انتصارها).

انتشرت المسيحية فى مصر فى طول البلاد وعرضها : أيقظت شعباً أصيلاً ساهم بقسط وافر فى الحضارة الإنسانية. أيقظ فيه كل ما ورثه من قوى روحية وفكرية، إذ رغماً عنه أنه ظل يرزح قبل دخولها، زهاء الخمسة قرون، تحت وطأة استعمار الفرس ثم الأغريق ثم الرومان. فقد استمد من اعتزازه بأصله وماضيه وبوحدته وتاريخه منبهاً قوياً للوعى القومى، ولتغذية الروح الوطنية التى كانت تخبو أحياناً دون أن تنطفئ. وقد ملأت المسيحية فراغاً روحياً كان يشعر به، منذ مسخ المستعمر معتقدات أجداده، وطعمها بالروح اليونانية التى كانت بغيضة إليه، ولذلك كان انتشارها سريعاً ولا أدل على ذلك من بعض أجزاء العهد الجديد التى وجدت منذ بعض الوقت فى الفيوم التى ترجع إلى أوائل القرن الثانى الميلادى.

١ ـ الحركة الوطنية :

لم يقتصر أمر المسيحية على مجرد حلولها محل الديانات الوثنية

القديمة، ولم يقتصر ما تناولته من تغيير فى حياة المصريين الروحية فقط. إذ كان لمبادئها الاجتماعية، الماحية لنظام الطبقات والأجناس. والتى رسمت للإشتراكية خطوطها العريضة الرئيسية. أثر واضح فى تغيير نظرتهم إلى الحياة وإلى المحتلين الذين أرادوا أن يتبوأوا منهم مقاعد السيادة والصدارة. وأزكت فيهم الطموح إلى الاستقلال السياسى عن الدولة الرومانية فكان أن استعادوا ثقتهم بأنفسهم، وكأنى بهم قد ولدوا ولادة ثانية. فكانت ثورة الأقباط السلمية الكبرى فى عصر الطاغية دقلديانوس الذى أرَخَ المصريون تاريخهم بدءاً لشهدائهم. ومازالوا يحتفلون بهذه الذكرى كل عام فى مطلع رأس السنة القبطية.

٢ ـ مدرسة الإسكندرية :

كانت الإسكندرية مدينة العلم والعلماء، تتقابل وتتصادم فيها أفكار المصريين واليونانيين واليهود : فلم يكد يمضى القرن المسيحى الأول حتى انضمت عقول أبنائها الجبارة، مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التى ذاع صيتها فى الشرق والغرب والتى شرحت أسس وقواعد المسيحية، وتكللت بتقديم المسيحية، التى قامت على أكتاف البسطاء والفقراء والتى قام بنشر تعاليمها بعض صيادى الجليل، تكللت بتقديمها إلى الطبقة المفكرة فى العالم، لتحتفظ لها بمكانة خاصة فى المجتمع فنجحت، وانتشرت المسيحية بين العلماء والفلاسفة أيضاً، وإذا بعلوم مدرستنا وفلسفتها تضفى صيغتها بعد ذلك على تاريخ المسيحية، فى

كلِ زمانٍ ومكان. وإذا بالعقيدة المسيحية تزداد دقة ووضوحاً. بما كانت تلقى عليها من ضوء، تلك العبقريات الملهمة أمثال بنتينوس، ذلك العالم الذى قام برحلة تبشرية حتى وصل إلى الهند ماراً ببلاد العرب، واكليمنضس الإسكندرى، الذى كان فيلسوفاً وثنياً مقيماً ببلاد اليونان وسمع بالدين الجديد فطاف بتلك البلاد وبإيطاليا وبالشرق باحثاً عن الحقيقة فيما يتعلق بكلمة الخلاص، وأخيراً ألقى عصا ترحاله فى الإسكندرية فوجد مبتغاه عند بنتينوس واعتنق المسيحية على يديه وأصبح من كبار معلميها، ثم أوريجينوس صاحب العقلية الجبارة التى أثارت كثيراً من النقاش وتركت أثرها بين معلمى الكنيسة فى الشرق والغرب، ويأتى بعد ليونيسيوس وديديموس الضرير معلم أثناسيوس الرسولى. هذه أسماء خالدة مازال يذكرها العالم إلى يومنا هذا بكثير من الإكبار والإعجاب.

٣ ـ الإستشهاد :

لم يقنع مسيحيو مصر بنشر المسيحية وتدعيم أسسها بمجهودهم العقلى الجبار فقط، بل قدموا ذواتهم فى سماحة ورضا للدفاع عنها، عندما قامت الوثنية تخوض ضدها معركة أخيرة يائسة فى سبيل البقاء فقدمت بذلك كنيستنا جيشاً كبيراً من الأبطال تخضبت جباههم بالدماء، منهم من وصلت إلينا أسماؤهم فكانوا بمثابة معالم الطريق الذى سلكته المسيحية، ومنهم عشرات الألوف لم تصل إلينا أسماؤهم، فهم الذين مهدوا بذلك الطريق بأجسامهم. ومازالت كنيستنا والعالم

أجمع يفخرون بهؤلاء الشهداء، الذين تكون قصتهم صفحة من أعجب وأنبل صفحات تاريخ المسيحية، إنها قصة خالدة لا يحدها الزمن أو التاريخ.

٤ ـ الرهبنة :

تولى الإمبراطور قسطنطين عرش المُلك. قابضاً على زمام الحكم بيد، وحاملاً باليد الأخرى ذلك اللواء العجيب الذى يتوسطه الصليب واسم السيد المسيح، وأصبحت المسيحية تستند على الإمبراطورية ولوائها، بعد أن حرمتها قوانين الإمبراطورية طوال ثلاثة قرون، وأقبل الناس على اعتناقها أفراداً وجماعات كل ذلك كان يبدو حسناً وجميلاً، وموجباً للإرتياح الوفير ولكن مسيحى مصر نظروا إلى الأمور نظرة فاحصة عميقة، فلم يهدأ لهم بال. لقد رأوا أن إنهيار المقاومة التى كانت تقابلها المسيحية فيه إغراء بالتهاون والانغماس فى الترف وبالتالى فيه خطر على الروح التى هى فى عراك مستمر مع شهوات الجسد. ونظروا إلى الأفواج التى تعتنق المسيحية، فأشفقوا على الفضائل المسيحية من أن تتلوث ببعض العادات الوثنية، من جراء أولئك الوثنيين الذين لم يتغلغل التغيير المسيحى إلى أعماق نفوسهم، أو أولئك الذين كان للدوافع السياسية أو الشخصية أثر فى اعتنقاهم للمسيحية، كذلك كان هناك خوف أيضاً من أن يحاول فريق أن يوفق بين تعاليم الإنجيل والروح الوثنية. ووجدوا أن خير علاج لذلك، هو إيجاد حالة نفسية وروحية جديدة بين الذين يعتنقون المسيحية مهيأة لقبول واستساغة التعاليم الروحية والخلقية للسيد

المسيح، مثل الزهد ونكران الذات والمحبة بأوسع معانيها. هذه الحالة الفكرية التى سادت مصر أدت إلى ظهور حركة الرهبنة، تلك الحركة القوية فى مظاهرها المختلفة، المصرية الصميمة فى أصولها ومنابعها، التى لعبت دوراً رئيسياً فى تاريخ الكنيسة منذ القرن الثالث إلى الآن، والتى تركت على هذا التاريخ أثراً عميقاً نستطيع أن نتبينه حتى بين أولئك الذين لا يعترفون بالرهبنة ومبادئها. وإذا بالصحراء تمتلئ بالعابدين، وإذا بالرمال التى ظلت جرداء منذ بدء الخليقة تنبت البطولة وتأسست على تلك الرمال جامعة شعبية ديمقراطية فريدة فى نوعها لم نسمع عن مثيل لها فى التاريخ. كان يؤمها الطلاب من جميع الطبقات ومن ذوى الثقافة المتباينة من أنحاء متفرقة من العالم. وكان يقوم بالتدريس فيها جمع من النساك لم يكن فى ماضى حياتهم ما يلفت النظر، ولم يكونوا ليمتازوا عن صيادى الجليل فى علومهم ومع ذلك فقد تخرج على أيديهم كثير من العلماء والفلاسفة الذين تمكنوا من أن يضعوا الأُسس والمبادئ الخالدة على الدهر، لكل ما يتعلق بالحياة الروحية، وجعلوا من مصر أرضاً مقدسة حج إليها الكثيرون ليتتلمذوا على آباء البرية، وفى مقدمتهم القديس باسيليوس الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية، والقديس هيلاريون مؤسس الرهبنة فى فلسطين، وروفينوس وكاسيان اللذان نقلا الرهبنة إلى الغرب، والقديس ايروينموس وأما أسماء الرواد لهذه الحركة المباركة، فقد حرصت كنيستنا على أن ينتظمها عقد،

يذكرهم بموجبه الشماس واحداً واحداً فيقول: Пιπιϣϯ авва Антωпι (أى العظيم أنبا أنطونيوس ... إلخ).

٥ ـ التبشير :

كان دخول المسيحية باعثاً فى البلاد حضارة مصرية جديدة صاحبت نشأة الكنيسة المصرية التى لم تقنع بقبول الإيمان لنفسها فقط بل عملت على نشر هذا الإيمان فى الأقطار البعيدة التى لم تكن قد آمنت بعد، جنوباً حتى الهند وشمالاً حتى إيرلندا، فكانت أول كنيسة تقوم بالتبشير.

وفى ذلك تقول عالمة الآثار مرجريت مرى : كان المسيحيون فى مختلف الأصقاع جماعات صغيرة ومتفرقة. أما مسيحيو مصر فكانوا هيئة منظمة، بلغت من القوة حداً أقصى إلى جعل المسيحية الدين الرسمى للبلاد عام ٣٨٩م. ولهذا يحق لمصر أن تفخر بأنها أول قطر مسيحى فى العالم. وحتى بلوغ ذلك أرسلت المبشرين إلى سكان أوربا الوثنيين فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال وإيرلندا وبريطانيا. ويذكر المؤرخ بتلر Buttler فى مقدمة كتابه (الكنائس القبطية القديمة) : (إن المبشرين القبط وصلوا إلى الجزر البريطانية. وإنه يوجد إلى يومنا هذا. ببلدة، ببلة ديزرت أوليدة Disert Ulidh بإيرلندا، قبور سبعة من الرهبان المصريين، ولا تزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة، بكنيسة تلك الجهة) ثم تكلم بتلر عن الشبه بين مبانى الكنائس المصرية والإيرلندية.

استغرقت بشارة القديس مارمرقس الرسول نحوا من عشر سنوات، سافر إبانها إلى روما ومرة أو أكثر إلى إقليم الخمس مدن الغربية (مسقط رأسه) وفى خلال ذلك كان قد كتب إنجيله وأسس كنيسة الإسكندرية والمدرسة اللاهوتية ووضع القداس الذى ينسب إلى قداسة البابا كيرلس عمود الدين وبينما هو يثابر فى تبشيره بالإسكندرية اختتم صحيفة جهاده يوم ٣٠ برمودة ٨ مايو عام ٦٨م باستشهاد رائع، ودفن فى كنيسة بوكاليا أى (دار البقر) التى أسسها بيده. ومن المصادفات العجيبة أن تؤسس أول كنيسة فى دار البقر كما أنه فى بيت لحم ولدت العذراء ابنها وقمطته وأضجعته فى مذود البقر وكان القديس بولس زميله ورفيق جهاده وهو يخاطب المصريين بقولة : "اذكرو مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم" (عب ١٣ : ٧).

يتبع قديسنا. على ذات النهج الذى ختم به حياته، على مراقى التاريخ المخضب بالدم ومعه صفوف متزاحمة متلاصقة من أبطالنا الشجعان منذ القرن الثانى الذين تمسكوا بعقيدتهم وشريعتهم ومثلهم العليا حتى الموت.

هذا هو سجل الشرف الخالد، وهذا هو القديس مارمرقس الرسول أو من كتب اسمه فيه بدمه.

الفصل الرابع
النيروز وإنسانيات الشخصية المصرية

ليس النيروز مجرد عيد وطنى مصرى تأتى معه سنة جديدة تضاف إلى سنى التقويم القبطى، ولا هو فقط بداية موسم زراعى تودع خلاله بذور الحياة والخصب أرض الوادى لتنبت وتزهر وتثمر، لكنه إكليل جهاد وتتويج لنضال عاشه شعب عريق، أعزل شكلاً لكنه مسلح موضوعاً بقوة النعمة الإلـهية فكان أن أجبر الحكومة الرومانية، أعتى حكومة فى القرون الأربعة الأولى، على اعتناق المسيحية والإيمان بالإنجيل...

النيروز معنى يحمل العديد من المضامين الروحية التى تبلورت فى شكل فلسفة عامة جاءت تجريداً وإضاحاً لفكر الجماعة المسيحية. إن النيروز يقترن ببدء التقويم القبطى المسيحى الذى أكد للشخصية المصرية قدرتها على التنظيم فكما وضع المصرى القديم التقويم السنوى الذى يبدأ بظهور نجم الشعرة اليمانية حتى يظهر مرة أخرى ليعتبروا الفترة بينهما حقبة زمنية مدتها ٣٦٥ يوماً قسموها إلى ثلاثة فترات الرى والبذور والحصاد وابتدعوا لها اثنى عشر اسماً أطلقوها على الاثنى عشر شهراً التى انتظمتها السنة الواحدة.. وهكذا لم يكن عجيباً أن يواصل المصريون المسيحيون التنظيم نفسه فيضعوا التقويم القبطى

بدءاً من عصر دقلديانوس ٢٨٤م مستخدمين أسماء الشهور القبطية نفسها وزاد بأن ربطوا بينها وبين القراءات الكنسية على مدار العام : ففي شهر توت تقرأ الكنيسة لناحياة يوحنا المعمدان وكأنها تمهد للفكر المسيحي الجديد في العام الجديد كما مهد يوحنا المعمدان لمجئ المسيح بفكر العهد الجديد. وفي أوائل هاتور تقرأ لنا الكنيسة مثل الزارع أسبوعين متتاليين لتربط بين شهر البذار ـ الذهب المنثور أي القمح ـ وبين اسم الشهر القبطي. وفي أواخر شهر مسرى تقرأ لنا الكنيسة أناجيل نهاية العالم وكأنها تذكرنا بأنه كما انتهى العام القبطي هكذا ستنتهي حياتنا على الأرض فيجب أن نستعد ونتهيأ ليوم الدينونة تنفيذاً لوصية السيد المسيح : "اسهروا وصلوا لتحسبوا أهلاً للنجاة من هذا كله" أي من كل ما يخالف وصاياه ويعيش بعيداً عنه. النيروز إذن فكرة ومعنى، وقيمة ورمز تتداخل فيه مجموعة من الفضائل المسيحية البارزة كان مجال التعبير عنها ساحة الإستشهاد حين كان أجدادنا وجداتنا، ومعهم كل أفراد أسرهم من أمهات وآباء وشباب وأطفال يطرحون تارة للوحوش المفترسة في مسرح روما الذي لا يزال موجوداً حتى الآن شاهداً على هذه الحقبة التاريخية الخالدة، وتارة أخرى كانت رؤوسهم يطاح بها بحد السيف، وأحياناً يلقى بهم في النيران أو يسلمون للصلب بين الأشجار، أو يسحلون في الشوارع كما حدث مع القديس مارمرقس، وفي كل هذه المواقف كانت تتجلى إنسانيات الحياة المتوهجة بالوصية

المسيحية الساطعة بنور الإنجيل فيما بدأ من هؤلاء الشهداء من صبر واحتمال وقوة خارقة على مواجهة العذاب والموت ولذلك لاندهش حين نقرأ عن الرؤى الإلهية التى كانت تتكشف لعيونهم الجسدية المحدودة كما حدث مثلاً مع القديس إستفانوس حين رأى السماء مفتوحة وابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة، أو حين استنارت بصيرة التسع والأربعين شهيداً شيوخ برية شيهيت ـ والمدفونين حالياً بدير القديس مقاريوس الكبير بوادى النطرون وعلى قبرهم لافته سجلت عليها أسماؤهم ـ فماذا رأوا ! رأوا ملاكاً نازلاً من السماء يضع إكليلاً على رأس كل منهم. وأن المؤرخ ليقف ـ ولابد أن يقف ـ أمام المشاعر الإنسانية التى صاحبت حدث الإستشهاد بكل ما فيه من صور الوداع بين الأب وأبنائه أو الزوجة وزوجها أو الأم وأطفالها أو الأب الأسقف وشعبه كما حدث مع القديس بطرس خاتم الشهداء حين أصر شعبه أن يفتديه من القتل فتجمع خارج السجن مستعداً للإستشهاد فى سبيل الأب الأكبر لكن القديس بكل مشاعر الحب والبذل والتضحية اقترح على مضطهديه أن يأخذوه إلى مكان بعيد عن السجن ليقتلوه هناك حتى لا يعرض شعبه للموت... صورة ما أروعها فيها الأبوة وفيها الحنان وفيها التناهى فى الحب... هكذا تتلاحق أمامنا صور إنسانيات الإستشهاد أو إنسانيات النيروز أو بمعنى أعمق إنسانيات الشخصية المصرية خلال هذه الحقبة حين كشفت عن أصالة معدنها وتميز

تكوينها فإذا بها شخصية العطاء وسماتها الصلابة والتمسك بالحق ثم الإستشهاد فى سبيل الدفاع عنه. أما هذه الصور الإنسانية والتى كشفت عن أصالة هذه الشخصية كما ذكرنا فمنها إكرام أجساد الشهداء وبذلك أقصى غاية الجهد فى الحصول عليها من الجند الواقفين مدججين بالسلاح على ساحات الشهداء وكانوا يأخذون هذه الأجساد الطاهرة ويدفنونها بإكرام زائد ويصحبهم شماس مؤرخ هو الشهيد والأسقف فيما بعد يوليوس الأقفهصى يسجل سيرة الشهيد ويدونها ومن مجموع ما دونه تكون لنا السنكسار ويعنى بالعربية كتاب السير. أما عيد ميلاد هذا الشهيد فى العام التالى فكان موضع اهتمام شعب المدينة التى استشهد بها حين يذكرون أن يوم استشهاده هو يوم ميلاده الحقيقى فى الفردوس وكان هذا الاحتفال يتم أمام الأطفال والشباب ليتسلموا تراث آبائهم وهو بهذا الأسلوب التربوى الفريد تراث حى وواقع معاش وصورة ناصعة تظل ترافقهم لتمر الأيام بعد ذلك فيقفون ذات الموقف ويتقدمون إلى ذات الساحة ليصبحوا هم بدورهم سيرة ونموذجاً ومثلاً أعلا...

أما دور المرأة القبطية فكم كشف عن صدق تدينها حين كانت نِعمَ الشريكة بل والمشاركة فى التأكيد على الاستماتة فى الدفاع عن الإيمان : هذه الفتاة الطاهرة بوطامينا من الإسكندرية التى طلبت من مضطهديها ألا يخلعوا عنها ملابسها مقابل أن يلقوا بها ببطء فى وعاء الماء المغلى (أو الزيت المغلى) وإذا بالجندى المكلف بتعذيبها ـ باسيليدس ـ يذهل لعبقرية هذه الشجاعة ويصيبه الإنبهار من صلابتها

وقوة إرادتها واستبسالها فى الحفاظ على كمالها المسيحى فيصرخ معلناً إيمانه بالمسيحية لينال هو الآخر إكليل الشهادة بعدها بثلاثة أيام... وهذه الشمامسة التى اختبأ عندها القديس أثناسيوس الرسولى وكانت تقوم بتحرير رسائله إلى شعبه وتوصيلها إلى آباء الإسكندرية وفيها يرفع من معنويات شعبه حاثاً إياه على الثبات والاحتمال... وهذه الأم دولاجى التى قطعت رؤوس أولادها الستة أمامها ثم هذه الراهبة التى موهت على الجند بدهن رقبتها بزيت قالت لهم عنه أن من يدهن به لا يقدر عليه حد السيف ثم سارعت وهم فى دهشة ودهنت رقبتها ودعتهم لبدء التجربة بها وكان أن صعدت روحها الطاهرة عفيفة نقية... دور المراة كان من أروع صور الإستشهاد ولئن كانت زوجة الشماس تيموثيئوس خادم كنيسة مارمرقس بالإسكندرية قد تأثرت لمنظر زوجها وهم يقلعون عينيه لرفضه تسليمهم كتب الكنيسة حتى لا يمزقوها: نعم تأثرت وكان لابد أن تتأثر فطلبت منه أن يسلمهم الكتب لكنه شجعها قائلاً إذا كانوا قد أفقدونى بصرى الحسى فالله يعطينى البصيرة الروحية فنسيت آلامها وتسامت على عواطفها بل وتجاوزت مشاعرها كزوجة أمينة وفيه لزوجها وجعلت تشجعه على المزيد من الثبات حتى استشهدا معاً ونالا إكليل المجد... الأم المصرية فى هذه الحقبة خرجت من تحت مظلتها آلاف الأبناء والبنات ممن قدموا دماءهم بذاراً حية للإيمان بالمسيح وستظل هذه الأم صمام أمان لبيوتنا وأجيالنا الصاعدة.. وهكذا سيظل كتاب السنكسار مفتوحاً.

الفصل الخامس
سنة الشهداء لعصر الشهداء، ولكنيسة الشهداء

فى اليوم الأول من شهر توت القبطى، يبدأ العام القبطى الجديد للشهداء الأطهار. وإذا اقتطعنا من العام الميلادى عدد السنوات القبطية التى مرت، يتبقى الرقم ٢٨٤ ، وهو الرقم الذى يعين بالضبط السنة التى ارتقى فيها دقلديانوس عرش الإمبراطورية الرومانية.

فلماذا ابتغى قبط مصر أن يبدأوا بتاريخ إعتلاء دقلديانوس عرش الإمبراطورية الرومانية حلقة جديدة تستحق أن تكون بداءة جديدة لفترة مهمة من تاريخ شعبهم وأمتهم المصرية؟. وكأنهم أرادوا أن يلفتوا نظر الأجيال الآتية من أطفالهم وشبابهم إلى أن سنة ٢٨٤ لميلاد المسيح علامة بارزة جديدة بأن تكون بذاتها نقطة تحول واضحة فى تاريخهم الطويل الذى يروى قصة أقدم وأعظم حضارة إنسانية. وتقويمهم الذى يعد أقدم تقويم فلكى دقيق فى عالم الإنسان.

إذا قدرنا العوامل النفسية في حياة الشعوب وخطرها فى تحريك التيارات الفكرية، تبينا أنه لابد إن كان لعصر دقلديانوس طابع متميز ترك بصمات عميقة الغور على قلوب قبط مصر، غاصت إلى مداخل نفوسهم وألهبت مشاعرهم وأحاسيسهم.

وإذن لم يكن سر هذه البداءة الجديدة، هو الإعجاب بشخص

دقلديانوس، أو تخليد لذكراه من أجل أعمال بطولية قام بها لخدمة الإنسانية... وإنما على العكس. لعل الأقباط قصدوا بهذا أن يسجلوا على الرجل عملاً شريراً سيظل مقترناً باسمه ومرتبطاً بحكمه وعهده، بحيث لو تنصل هو من تبعته، يبقى بعد حياته إلى كل الأجيال اللاحقة، علماً أسود يخفق بذكراه الأثيمة وبجرائمه البشعة، ولعله بذلك يكون عبرة لكل حاكم من بعده تحدثه نفسه أن يستغل سلطانه للبطش بأعدائه فى الفكر والرأى والاعتقاد.

ومع ذلك فنحن نعتقد أن السبب الأعظم وراء تاريخ قبط مصر لعصر دقلديانوس هو التاريخ للأبطال من شهدائهم الذين ارتقوا إلى القمة لا فى أعدادهم فقط بل فى روح الاستبسال والشجاعة والثبات والصمود، والترفع فوق الإغراءات والتهديدات وأساليب الإرهاب الفكرى والنفسى، والتصفية الجسدية والفردية والجماعية، التى بلغت ذروتها عصر هذا الإمبراطور الطاغية، الذى ملأ الحقد قلبه ضد المسيحية بسبب تصرف أسقف أنطاكية. فقد دخل دقلديانوس. فى حرب مع ملك الفرس، واستطاع أن يأسر ولده فى الحرب، وجاء به دقلديانوس وأودعه عند الأسقف، أسيراً ، إلى أن يعود من الحرب. وحدث فى أثناء ذلك أن جاء أُناس من قِبلْ ملك الفرس، وأخذوا يستعطفون الأسقف فى أن يطلق سراح ابن ملك الفرس. فَرقَ قلبه، ولان أمام استعطاف الوسطاء فأطلقه وسلمه إليهم، وظن أنه يستطيع فيما بعد أن يترضى الملك

دقلديانوس، لكن دقلديانوس رجع فى سورة غضب شديد، وسأل الأسقف عن ابن ملك الفرس، إذ تبين له أن الأسقف أطلق سراحه.. وزاد الطين بلة أن ابن ملك الفرس لم يرعَ الخير الذى صنعه الأسقف وتحمله المسئولية عنه أمام الإمبراطور الرومانى. وإنما عاد إلى الحرب، فرآه دقلديانوس، فى ميدان القتال، فأسرة للمرة الثانية، فاستبد به الغضب على الأسقف، وفقد عقله فذهب إلى الأسقف وعاقبه بشدة.

ولم يسمع له، بل زاد حنقه على المسيحية والمسيحيين، وامتلأ قلبه غيظاً وشراً، وصمم على محق المسيحية وإبادة المسيحيين، ورسم له شيطانه أن يصنع تخطيطاً محكماً لمحو المسيحية من الوجود.. وكان تخطيطه الزكى يقوم على أربع نقاط:

الأولى: هدم الكنائس.

والثانية: حرق الكتب المقدسة.

والثالثة: طرد المسيحيين من وظائف الدولة.

والرابعة: قتل رجال الدين، وذبح المسيحيين.

ومن فرط حنقه على المسيحيين أقسم بآلهته الوثنية أن يقوم بنفسه بذبح المسيحيين، ولا يترك الأمر إلى الولاة والحكام وحدهم فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وإذ كان يعلم بإزدهار المسيحية فى مصر، وأن كنيسة مصر حية بروحانية شعبها ورجال الدين فيها، وأن مدرسة الإسكندرية اللاهوتية احتلت مركز الصدارة فى العالم المسيحى، وقد

نمت وتطورت فأصبحت أعظم مدرسة دينية وعلمية فى الشرق والغرب، وقد أمكنها شيئاً فشيئاً أن تجتذب العلماء المفكرين حتى أغلقت المدارس الأخرى أبوابها ولم تلبث أن تحولت مدرسة الإسكندرية الدينية إلى جامعة لاهوتية كان يقصد إليها طلاب الدين والعلم من كل بقاع المعمورة... لذلك قال فى نفسه إنه لابد له أن يسحق رأس الحية بكل قوته كى يتمكن من القضاء على الحية كلها. والحية عنده هى المسيحية، ورأس الحية هو فى مصر. فصمم على المجىء بنفسه إلى مصر، وأقسم بآلهته الوثنية أنه لن يكف عن ذبح المسيحيين بسيفه الذى فى يده حتى تصير دماء المسيحيين المسفوكة على الأرض بحراً يسبح فيه جواده، ووفى بوعده، فأتى إلى مصر،

وبدأ بالإسكندرية ـ وكانت هى العاصمة ـ وأخذ يقتل ويذبح بيده وسيفه. تبعه بطبيعة الحال كل الحكام فى جميع المدن، ومن انساق إليهم من الأهالى من الوثنيين، فكانت المذبحة الهائلة التى لم يعرف لها التاريخ مثيلاً فى جميع فى عهود الإمبراطرة السابقين ابتداء من نيرون Neron (٥٤- ٦٨م) الطاغية الذى أحرق مدينة روما وتنصل من المسئولية وألصق تهمتها بالمسيحيين، فأشعلوا فيهم النيران. ورموهم للأُسود الضارية والحيوانات المفترسة الجائعة.. وما صنعه نيرون بالمسيحيين، وما صنعه تراجان Trajan (٩٧- ١١٧م). وديكيوس Decius (٢٤٩- ٢٥١) وغيرهم من الإمبراطرة التسعة السابقين على

دقلديانوس، لم يُحسب فى فظاعته وبشاعته شيئاً بالقياس إلى ما فعله دقلديانوس، ولهذا اُعتبر عهده (عهد الشهداء) على الرغم مما سبقه من عصور استشهاد كبيرة ضارية، وعلى الرغم مما عاناه قبط مصر بعد ذلك من اضطهادات عنيفة فى عهود لاحقة.

فإذا سجل قبط مصر تاريخ إعتلاء دقلديانوس، واعتبروه علامة مميزة على عصر الشهداء، فهذا يعد فى ذاته دليلاً بالغ القوة على أن عصر دقلديانوس هو الأعظم فى الشدة والشراسة بين جميع عهود الشهداء السابقة واللاحقة.

ولم يرَ قبط مصر فى كراهية، أعداء المسيح لأتباع المسيح دليلاً على تخلى نعمة الله، عنهم إنما كانوا دائماً يفهمونها على أنها امتداد طبيعى لكراهية الشيطان لدين المسيح. فالشيطان منذ التجسد الإلهى، ومنذ عمل الفداء بالصليب، تبين أن المسيح غزا مملكة الشيطان فى قاعدة مُلكه، وهى الأرض وما تحت الأرض وقد كان يحمل لقب (رئيس هذا العالم) (يو ١٢ : ٣١)، (١٤ : ٣٠، ١٦ : ١١)، فأعلنها حرباً شعواء ضد أتباع المسيح فى كلِ مكانٍ وزمان، وهذا ما أنبأ به المسيح تلاميذه " إن كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم أنتم أيضا " (يو ١٥ : ٢٠) ... "ها أنا ذا أرسلكم كحملان بين ذئاب" (لو ١٠ : ٣)، (مت ١٠ : ١٦) ... "ستأتى ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم ذبيحة لله" (يو ١٦ : ٢).

لذلك كان المسيحيون، ومازالوا ينظرون إلى الإضطهاد من جانب غير المسيحيين، عداوة يثيرها الشيطان أصلاً... وللشيطان فى كل جيل رسل وعملاء يحملون رسالته رسالة الحقد والشر والكراهية والغدر والانتقام.

بل إن المسيحيين، دائماً وأبداً، يرون فى الإضطهاد، إمتحاناً لإيمانهم ومحكاً لأمانتهم لسيدهم المسيح الذى اشتراهم له واقتناهم بدمه (أع ٢٠ : ٢٨)... فالمسيح يرى اضطهاد الآخرين لهم ويرقب، ولا يتدخل إلا أخيراً، وذلك ليعطى لهم فرصة إمتحان لمحبته.. فمن كان يحبه على الحقيقة يلازمه ولا يفارقه، يحمل صليبه ويتبعه (مت ١٦ : ٢٤) ولا ينكره (لو ١٢ : ٩) مهما كان الثمن.. وما من حب أعظم من أن يبذل أحد نفسه عن الذى يحبه (يو ١٥ : ١٣)... وقال المسيح له المجد "كن أميناً حتى الممات وأنا أعطيك إكليل الحياة" (رؤ ٢ : ١٠).

ومن مفاخر عهد الشهداء فى مصر أنهم كانوا أحياناً يخرجون زرافات وجماعات إلى ساحة الإستشهاد، يرتلون بتراتيل تشحذهم إيماناً وشجاعة وصموداً، ويهرولون نحو الولاة والحكام، يمدون لهم رقابهم. ببسالة وجرأة أذهلت مضطهديهم، وكم كانت عصور الإضطهاد فرصة مباراة يبرز فيها الإيمان، واليقين بالحياة بعد الموت... وكان لسان حال كل منهم يقول: (احتمل هذه المحن، غير أنى لا أستحى بها لأنى عالم بمن آمنت وموقن أنه قادر على أن يحفظ وديعتى إلى ذلك اليوم" (٢تى

١ : ١٢) ويردد بقلبه قبل لسانه إن ملك العالمين، إذا متنا فى سبيل شريعته فسيقيمنا لحياة أبدية (٢. المكابيين ٧ : ٩).

وما أروع ما ترك لنا التاريخ من آيات البطولة فى سير الشهداء الأطهار. وفى مدينتى أخميم، وإسنا، على الخصوص، تراث جميل ومجيد لأعمال الشهداء المسيحيين الأبطال بصورة لابد أن تلهب مشاعر الناس وخيالهم فى كل العصور والعهود.. وقد صدق على كل من مدينتى أخميم، وإسنا أنها (مدينة الشهداء) لا بمعنى أنهما وحدهما دون غيرهما من مدن مصر قد قدمتا أكبر عدد من الشهداء، ولكن لأن فى كل منهما صورة بارزة لبطولة إيمانية غطت على كل صور البطولة التى عرفها الناس من قبل. وما زال فى أخميم ساحة باقية أمام كنيسة القديس أبى سيفين العتيقة الشهيدة تحتفظ إلى اليوم باسم (ساحة الشهداء).

وقد بلغ من افتخار المسيحيين بالإستشهاد أنهم كانوا يعتبرونه إكليل فخار وشرف حتى لأطفالهم الرضع، فكانوا يرسمون علامة الصليب بالوشم على أيدى الأطفال منذ الأيام الأولى لولادتهم حتى إذا ما قتل الوالدون كانت علامة الصليب الموشومة على يد الطفل الرضيع شهادة ناطقة بمسيحيته، فيكون مصيره مصير والدته ووالده اللذين قتلا من قبله... فإذا نجا الطفل من القتل دلته علامة الصليب الموشومة على يده عندما يكبر على أنه من أتباع المسيح الذين اتخذوا صليب سيدهم شعاراً لهم وعلماً لمملكة المسيح الروحية التى انضموا تحت لوائها.

ولقد بهر الوثنيون، ن أنفسبهم بصور الشجاعة الإيمانية التى برزت لا فى الكبار فقط من رجال ونساء، شبان وشابات بل حتى فى الأطفال الصغار.. ولعل من بينها الطفل (قرياقوص) الشهيد الذى كان فى الثالثة من عمره وصمد أمام التعذيبات بصورة تستدر الدمع من العيون التى لا تعرف البكاء. هذا هو الشهيد الطفل الذى تقيم له الكنيسة احتفالات بعيد استشهاده فى بعض الكنائس المقامة على اسمه، وليس غريباً أن مدينة (أبو قرقاص) فى صعيد مصر بمحافظة المنيا ترجع تسميتها إلى (أبا قرياقوص) الشهيد ـ وكان نتيجة طبيعية لهذا الإنبهار بشجاعة الشهداء وصدق إيمانهم، أن ينضم كثيرون من الوثنيين إلى دين المسيح، ويؤمنون، وينالون إكليل الشهادة مع الشهداء المسيحيين... ولقد كان هذا الأمر يحير الولاة والحكام. بل إن منهم أريانوس Arrhianos والى أنصنا (حالياً الشيخ عبادة بمركز ملوى)ـ وكان مشهوراً بتفننه فى تعذيب المسيحيين حتى إن بعض الولاة والحكام كانوا يحيلون عليه الحالات العسرة، فيبتكر وسائل للتعذيب جديدة بالنسبة لغيره ـ ومع ذلك يتبين أن هؤلاء الشهداء كانوا أقوى مراساً من أن يستطيع هو أن يثنيهم عن إيمانهم.. وأخيراً لم يستطيع هو نفسه أن يقاوم انبهاره بتلك الشجاعة وذلك الإيمان. فآمن هو أيضاً بالمسيح وجهر بالإيمان المسيحى، فمات على اسم المسيح شهيداً، وضم اسمه إلى قائمة الشهداء الأطهار (السنكسار اليوم الثامن من برمهات).

إن تاريخ الشهداء جميل وحلو، معبق بالروائح الزكية، والمسيرات العطرة للأبطال الصناديد الذين صمدوا ولم يتراجعوا، وثبتوا ولم تخر قواهم، فكانوا أقوى من الحديد. وأصلب من الصلب، وكانت حرارة إيمانهم أشد من حرارة النيرانِ التى أحرقت بها أجسادهم، فوصلت أرواحهم إلى السماء سليمة، أما أجسادهم فلسوف يتسلمونها بغير فساد فى يوم القيامة العامة.

يا أبناء الشهداء. إن كنيستكم كنيسة الشهداء.. لقد كان آباؤكم أبطالاً، كل منهم كان كالطود الشامخ والجبل الأشم.. إيمانه عزيز عليه، وعقيدته فى المسيح، وفى الحياة الآخرة عقيدة غالية لديه.. هى أغلى من حياته ومن دمه.. وأغلى من كل مطامع الدنيا الزائلة.. لقد اقترب المجيء الثانى للمسيح.. وقبل مجيئه يظهر المسيح الدجال.. ولسوف يكون هناك إمتحان قاسٍ للإيمان أمام التحديات العظيمة التى تسبق المجيء الثانى للمسيح. وهنا وصية المسيح إلهنا إلينا "تمسكوا بما هو عندكم إلى أن أجيء" (رؤ ٢ : ٢٥).

ثم وصية رسل المسيح إلينا "تيقظوا، اثبتوا فى الإيمان. كونوا رجالاً.. كونوا أشداء" (١ كو ١٦ : ١٣).

الفصل السادس
عصر الشهداء

لم تعرف البشرية فى كل تاريخها شهداء كشهداء المسيحية من حيث أعدادهم التى لا يمكن أن تحصى، بل وأيضاً من حيث حماستهم وحرارتهم وشجاعتهم وإيمانهم وفرحهم بالإستشهاد. فقد كانوا يعانقون الموت فى فرح ومسرة أذهلت معذبيهم ومضطهديهم فوصفوهم بالجنون أحياناً، وبالحماقة والجهل أحياناً أخرى.

ولقد كان نيرون وبعض الأباطرة يصرح بدهشته من عناد هؤلاء القوم الذين يقابلون العذاب والموت بابتسامة!!

ولهذا سخر بعض أعداء المسيحية من ظاهرة الإستشهاد، وفسروها فى سذاجة وسطحية ظاهرة بأنها من نوع الانتحار تحت ظروف قاسية. ولكن الذى يقرأ التاريخ فى إمعان، ويحيا مع هؤلاء الشهداء فى أفكارهم ويحلق مع هؤلاء الشهداء فى أفكارهم ويحلق معهم فى سماوات مشاعرهم الممتازة يدرك أن إقبالهم على الإستشهاد بحمية وعذوبة كان بدفع تيار جارف من عواطف الإخلاص لدينهم والوفاء لمسيحهم، وشوقاً لرؤياه بالعيان والاستمتاع بحضرته، وذلك كله تعبير صادق عن عاطفة روحانية غنية بإيمان جبار، أروع صدقاً من العيان، وأعمق من كل بيان.

انظر على سبيل المثال فيما فعله القديس أغناطيوس أسقف إنطاكية المشهور بالثيئوفوروس أى "حاملِ الله" كيف قابل الحكم الذى أصدره عليه الإمبراطور تراجانوس بأن يقيد ويُرسل موثقاً بالسلاسل إلى رومية وهناك يطرح للوحوش الضارية. فبعد أن شهد للمسيح أمام الإمبراطور بشجاعة دونها شجاعة الأُسود، تقبل حكم الإمبراطور عليه بسعادة نادرة، ومن فرط فرحه، إذ رأى السلاسل التى سيقيدونه بها، جثا على ركبتيه، وانحنى على تلك القيود، وقبلها بفمه، شاكراً الله الذى حسبه أهلاً لأن يموت شهيداً من أجل اسمه!

ولما علم أن المسيحيين فى روما سيبذلون مساعيهم لإنقاذه من الموت، كتب إليهم رسالة مطولة، يطلب فيها منهم، أن لا يعيقوه عن إغتنام هذه الفرصة المواتية لترك العالم ويذهب إلى السماء. ومما قاله فى هذه الرسالة "أخشى أن تسبب لى محبتكم ضرراً. فإذا أردتم أن تمنعوا الموت عنى فلا يعسر عليكم ذلك، وبه تعملون مرضاتكم، غير أن فضلكم هذا سيكون مؤلماً ومحزناً وثقيلاً جداً لدىَّ. فإذا خسرت الإستشهاد الآن بسبب صنيعكم، فسيعود فيما بعد مستعصياً الحصول عليه من جديد. فلا أريد قط أن أرضيكم إرضاء بشرياً، بل أروم رضا الله وحده... فلربما لا أصادف فى المستقبل هذه الفرصة المغبوطة مرة أخرى : أن أبلغ بواسطة سفك دمى... فاسمحوا لى إذن أن أُذبح حيث قد أُعد المذبح، بل أستمدوا لى بدعائكم البأس الواجب لى لكى أقاوم

الوثبات الباطنة وأطرد الخارجة. واستعدوا أن توجدوا كلكم حاضرين حول المذبح مشاهدين ذبيحتي. وهكذا تصورون جوقة حسنة العبادة مؤلفة منكم لكي ترتلوا التسابيح المبهجة ذات الشكر والمديح للآب الإلهي ويسوع المسيح، لأنه تنازل أن يجتذب من المشرق إلى المغرب أسقف إنطاكية مقيداً من بلاد سوريا إلى مدينة رومية، ليعترف هناك باسمه العظيم، ويصير ضحية مذبوحة من أجله. فياله من حظ سعيد ونصيب مغبوط، وهو أن يترك هذا الدهر... ويحيا لله إلى الأبد... إني أشتهي الإستشهاد لكي أُظهر ذاتي مسيحياً لا بالقول فقط بل بالفعل... إني ماضٍ للقاء المنون بفرح ورضا تام.. أناشدكم بألا تودوني مودة تؤول مضرتي. دعوني أصير مأكلاً للأُسد والذئاب... إن هذا أخص طريق للوصول إلى السماء... وأنا أتوسل لله بأشواق بأن لا تترك تلك الوحوش من جسدي شيئاً على الأرض حتي لا تكون فضلات جسمي ثقلاً على أحد، عندما تكون روحي قد بلغت الراحة الأبدية، وأكون تلميذاً صادقاً ليسوع المسيح. فتضرعوا إذن عني لدى يسوع المسيح كي أصير قرباناً وذبيحة، بافتراس الوحوش لي، حباً به.... سامحوني يا إخوتي لأني أتكلم على هذا النحو، فإني أعلم جيداً الخيرِ العظيم الذي أرجوه وأتوق إليه ... إن أفنتني النيران وحولتني رماداً، أوعلقت على صليب، متجرعاً كأس موتة بطيئة، لو أُطلقت عليَّ النمورة الكاسرة والأُسد الضارية، وكسرت عظامي، وهشمت أعضائي، وسحقت جسدي برمته... فإني

محتمل كل ذلك بفرح بشرط أن أحظى بيسوع المسيح، لأنه ملك العالم بأسره. فأن الموت لى لأجل يسوع المسيح أفضل من أن أملك كل أقطار الأرض، لأن قلبى تائق إلى من مات لأجلى، ونفسى مشتاقة لمن إنبعث من الموت لأجلى...

أليست هذه العبارات النارية تعبيراً عن حب عظيم فى المسيح، ووفاء لصنيعه الإلهى، وإظهاراً لولاء شديد لمبادئه، وإيماناً عميقاً من أعمق طراز بالحياة الأخرى، وأنها أفضل وأبقى من الحياة الدنيا؟!.

هل يمكن أن تصدر مثل هذه الكلمات عن يأس قاتل، ورغبة فى الإنتحار كما يدعى قوم دون فهم صحيح للبواعث النبيلة التى كانت تحرك شهداء المسيحية نحو الترحيب بالإستشهاد والإقبال عليه كما يقبل الإنسان على أمر حبيب إلى نفسه يحصد من ورائه أجمل الثمرات..؟!.

ومن بين هذه الصور الرائعة المشرقة القديس بوليكاربوس أسقف أزمير، الذى لما قبض عليه الجند لم يحزن مع أنه كانت قد سنحت له فرصة الهرب، بل على العكس أنه رحب بالجند وقدم لهم طعاماً ليأكلوه، ثم جثا على ركبتيه يصلى، شاكراً الرب الذى شرفه بالجهاد الأعظم، حتى ذهل الجند من وقاره وهدوئه واتزانه وشجاعته، وكانوا يتطلعون إلى وجه تعلوه سحابة طافحة بالسرور والفرح، ولما ساقوه إلى الوالى رق الوالى فى مبدأ الأمر لشيخوخته، ووقر لحيته البيضاء، ثم سأله

أن يكفر بالمسيحية، فأجابه القديس على الفور : لقد عشت منذ صباى نحو ست وثمانين سنة أخدم المسيح سيدى. وفى كل هذه المدة لم يصبنى منه أذى يكدر خاطرى ويزعجنى، بل نلت منه كل إشفاق وإحسان. فلماذا تأمرنى أن أشتم مثل هذا المحسن؟!

وهذه صورة أخرى من صور الوفاء. إن القديس يرحب بالموت لأنه يعتبر إنكاره للمسيح خيانة لاتليق به إذا كان فيه وفاء لمن أحبه وأحسن إليه ورعاه بعنايته الإلهية منذ أن كان صبياً صغيراً.

أين إذن الروح العظيمة، روح الإخلاص والوفاء، من روح الإنتحار وما يملؤها من يأس قاتل، ومن تمرد على الحياة، وعلى كل القيم الروحية والأخلاقية؟!

وإذا كان لكل العالم المسيحى شهداء فأن نصيب قبط مصر كان دائماً أكبر نصيب. وجميع المؤرخين يشهدون أن عدد شهداء القبط زاد على كل شهداء العالم، وأن كنيسة مصر صدرت إلى السماء عدداً من الشهداء أكثر كثيراً من أى عدد صدرته كنيسة أخرى فى العالم. فلقد كان القبط أكثر شعوب العالم تديناً، أخذوا الدين فى بساطة وإخلاص وعمق، وعاشوا المسيحية فى حياتهم، ودخلوا إلى أعماقها، ودخلت هى إلى أعماقهم، وغاصت فيهم جداً، حتى أصبح يسهل عليهم تمزيقهم وتقطيعهم ولا يسهل عليهم أن يتنازلوا عن عقيدة من عقائدها أحبوا المسيح وهاموا فى حبه، وغرقوا فى محيطات واسعة عميقة من تأملات

وعبادات جعلت الكثير منهم يقصدون إلى حياة الهدوء فى الصحارى والقفار ليكون لهم وقت مناسب ليغرقوا فى تلك التأملات وهذه العبادات.

لذلك كان الملوك والأباطرة الوثنيون يرون فى قبط مصر "رأس الحية" التى تقض مضاجعهم، وتهدد سطوتهم الإمبراطورية. وكانوا يشعرون أن لا سبيل للقضاء على الحية إلا بقتل رأسها الظاهر فى مصر. لذلك كرهوا القبط وصبوا عليهم جام غضبهم، وعمدوا إلى الإنتقام والتنكيل بهم، بل أن دقلديانوس جاء إلى مصر بنفسه ليشبع شهوته الإنتقامية، وأمسك السيف بنفسه وركب على جواده وأخذ يقتل بيده، وبثورة جنونية كل من يلقاه من المسيحيين، وأقسم بآلهته الوثنية أنه لن يكف عن ذبح المسيحيين حتى يخوض حصانه فى بحر من دماء المسيحيين. وبعد أن قتل آلافاً منهم، حدث أن كبا حصانه فتلطخت ساقا الجواد بدماء الشهداء السائلة على كل الأرض، ولما كان قد تعب من حمل السلاح وذبح المسيحيين، رأى أنه قد وفى بالقسم الذى أقسمه، وكف عن القتل، وقد قدر المؤرخين عدد الذين قُتلوا فى ذلك اليوم وحده بأكثر من ثمانمائة ألف مسيحى وبضع مئات. ولذلك أعتبر القبط ذلك اليوم يوماً مشهوداً فى تاريخهم فبدأوا به سنتهم القبطية ٢٨٤ سنة من التاريخ الميلادى، وسمى لذلك تقويمهم بتقويم الشهداء الأطهار، وأصبح تاريخ الشهداء مرادفاً للتاريخ القبطى.

ليس هذا معناه أن عصر الإستشهاد بالنسبة للقبط بدأ عن سنة ٢٨٤ لميلاد المسيح. فالحق أنهم عانوا الإضطهاد منذ فجر المسيحية تحت حكم إمبراطورية الرومان ابتداء من عهد نيرون. ومارمرقس الرسول نفسه وهو كاروز المسيحية فى مصر، مات شهيداً، أو كان أول شهيد فى مصر. والشهداء من بعده كثيرون من كل درجات الإكليروس والشعب.

قال الوحى الإلهى: "للرب حرب مع عماليق من دور إلى دور" (خر ١٧ : ١٦).

الفصل السابع
تقويمنا القبطى أقدم تقويم عرفه الإنسان
وحضارتنا المصرية العريقة لا تزال حية فى تراثنا القبطى

يبدأ عام جديد للسنة القبطية المصرية الفرعونية، وهى السنة التى يتبعها الفلاح المصرى إلى اليوم، وإلى قيام الساعة فى توقيت الزرع والرى والحصاد، فهى سنة مصر الزراعية من أقدم العصور، ويعتبر التقويم القبطى المصرى أقدم تقويم عرفه الإنسان.

أما مصر فهى خالدة باقية على الزمن ولن تزول ولن تفنى. وقد قال فيها بعض العلماء إذا كانت العجائب سبعة، فالعجيبة الثامنة هى بقاء (القبط) إلى اليوم على الرغم مما عانوه فى تاريخهم الطويل من أهوال تميد من تحتها الجبال الرواسى. وقديماً قال الوحى الإلهى: "مبارك شعبى مصر" (إش ١٩ :٢٥)

فكلمة (قبطى) هى بعينها كلمة (مصرى). و(القبط) هو النطق العربى لكلمة G Y P T وهذه مشتقة من الكلمة اليونانية AIGYPTOS التى أطلقها اليونان فى مصر على سكان البلاد الأصليين، وعنها أخذ الرومان اللفظ اللاتينى AEGYPTUS، والفرنسيون EGYPTE ، والإنجليز EGYPT، والألمان AGYPTEN وغيرهم من شعوب العالم فى مختلف اللغات...

على أن الكلمة اليونانية AIGYPTOS ترجع فى أصلها إلى الكلمة المصرية الفرعونية HA-KA-PTAH أى (بيت روح الإله بتاح) أو (فتاح) وهو (إله الخلق)، ومن الطريف أن المصريين لا يزالون إلى اليوم يرددون هذا التعبير (يا فتاح، يا عليم)!

أما اسم (مصر) فهو مشتق من (مصرايم) MISRAIM وهو ابن حام بن نوح وهو أول من سكن أرض مصر كما جاء فى (سفر التكوين ١٠ : ٦)، وهو العاشر من آدم.

والكنيسة القبطية فى تراثها الخالد قد ورثت الحضارة المصرية فى كافة مناحيها وأبعادها وامتداداتها، فى اللغة، والأدب. والفن، والموسيقى.. حتى إن من أراد أن يعرف تراث مصر القديمة ينبغى أن يتوقف أول ما يتوقف عند الكنيسة القبطية ويتأمل ما حفظته من تراث فى طقوسها وترتيباتها وأنظمتها عبر التاريخ الطويل وما رعته وحافظت عليه وديعة ثمينة، صانته كما تصان اللآلىء الثمينة من مؤثرات وعوامل التعرية.

وهنا نذكر كلمة عميد الأدب العربى الراحل الدكتور طه حسين فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر): (الكنيسة القبطية مجد مصرى قديم).

وقد استلهمت الكنيسة القبطية فضائل الدين المسيحى من إيمان وصبر وأمانة وإحساس عميق بالمسئولية أمام الله العليم بما فى ذات

الصدور. فصار القبطى يتلقن منذ طفولته المبكرة، وهو يرضع لبن أمه، أن كنيسته القبطية هى مستوردة ذخائر الماضى التليد، وأنه ينبغى بكل ما يتطلبه الدين المسيحى، من أمانة، أن يتمسك بما عنده من تراث. وأن يحافظ عليه، حتى يسلمه إلى الأجيال التالية. سليماً نقياً طاهراً، وفقاً لقول المسيح له المجد "الذى عندكم تمسكوا به إلى أن أجىء" (رؤ ٢ : ٢٥).

ولولا الأمانة التى استلهمها الأقباط من ديانيتهم المسيحية لضاع مع الزمن تراثهم الخالد العريق.

وهذا هو فخر الكنيسة القبطية أنها على الرغم من الضغوط التى عانتها على مر التاريخ. وعلى الرغم من المتاعب التى لاقتها، فإنها استطاعت بالإيمان والصمود والصبر، والإحساس العميق بقيمة التراث الخالد.

والشعور العارم بالمسئولية الرهيبة أمام الله، وحيال الأجيال الآتية.. ثم الخوف والخشية من تبعة التهوين بالتراث الخالد، استطاعت أن تكون الحارس الأمين لذلك التراث المجيد.

وتراث الكنيسة القبطية هو التراث المصرى القديم باقياً ومصوناً ومحفوظاً، كما أنه هو امتداده الحضارى فى مسار التاريخ فى اللغة والأدب والدين والفن والموسيقى.

فى اللغة

أما فى اللغة، فلأن اللغة القبطية هى بعينها اللغة المصرية القديمة كما كان المصريون القدماء يتكلمونها وينطقونها، فلما أصبحت بعض حروفها ضعيفة، شأنها شأن كل لغة قديمة، فقد استعار علماء القبط الحروف اليونانية لنطق الكلمات القبطية المصرية، كما يكتب اليوم الأتراك والألمان والإنجليز وغيرهم لغتهم الأصلية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف الغوطية.. ومع ذلك احتفظ علماء القبط بسبعة حروف لم يجدوا لها نظيراً فى الأبجدية اليونانية.

ومما يستحق التنويه هو أن الحروف اليونانية التى استعارها علماء القبط ليكتبوا بها لغتهم المصرية القديمة، هى فى أصلها مأخوذة من الخط المصرى الشعبى الذى عرف بالخط الديموطيقى، والمعروف أن الهكسوس الرعاة عندما طردهم من مصر الملك المصرى أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة. قد نقلوا من بين ما نقلوا من حضارة مصر القديمة الخط الشعبى الديموطيقى، ومنهم وصل الخط الديموطيقى إلى اليونان عن طريق فينيقيا. وهذا ما يشهد به ويؤكده كتاب البيلوغرافيا -Paleog raphy (دراسة الكتابة والنقوش القديمة) أن الحروف اليونانية مأخوذة من الخط المصرى الشعبى الديموطيقى.

ومعنى هذا أن الحروف اليونانية التى استعارها علماء القبط ليكتبوا بها لغتهم المصرية القديمة هى أيضاً بضاعتنا وقد ردت إلينا.

هذه اللغة المصرية حافظت عليها الكنيسة القبطية في طقوس صلواتها وكتبها ومخطوطاتها بعد أن صار من المتعذر استخدامها لغة للكلام، لشدة ما عانت من اضطهاد فقد كان بعض الحكام يهدد الأقباط بقطع لسان كل مصرى يتكلم بلغة القبط مع أنها لغة مصر القديمة.

ومع ذلك استمر الكلام بها بطريقة سرية واستمرت الكتابة بها بطريقة محدودة ولقد نشر العالم الأمريكى ورل Worrell وثيقة قبطية كتبها قبطى من ملوى ترجع إلى القرن التاسع عشر، وهى وثيقة نادرة تدل على أن اللغة القبطية ظلت مستخدمة على نطاق محدود. كلغة كتابة ولغة كلام حتى القرن التاسع عشر.

فى الفن

وأما من حيث الفن، فالمعروف أن الفن القبطى الباقية آثاره إلى اليوم فى المتحف القبطى بمصر القديمة فضلاً عن الكنائس والأديرة القديمة يشهد بأنه امتداد للفن المصرى القديم. فلقد احتفظ الفنان القبطى فى التصوير والرسم التشكيلى والنحت، وكذلك فى صناعة السجاد وفنون التطريز المختلفة بالخصائص التى تميز بها المصرى القديم، وسار عليها شاعراً بها ومعبراً عنها لأنها حية سارية فى دمه، على الرغم من بعض التأثيرات غير القبطية التى وجدت مجالها عنده تحت ضغط الظروف المحيطة.

ونحن لا نزال نجد فى الكنائس الأثرية بالواحات، فى الوادى الجديد، الباقية فى المدافن القديمة ـ النيكروبوليس NECROPOLIS (مدينة الموتى) صورة العنخ مفتاح الحياة مرسوماً على الجدران، كما كان يرسمه المصريون القدماء فى معابدهم ومقابرهم، ولكنه صار فى العهد المسيحى يضم فى داخله صورة المسيح أو صورة العذراء مريم تحمل المسيح طفلاً على ذراعها الأيسر، أو صورة الصليب القبطى.. مما يدل على أن الفنان القبطى، وقد صار مسيحياً، لم ينس مصريته، وإنما ظل محتفظاً بخصائص الفن المصرى غير أنه ألبس الرموز المصرية القديمة لباساً مسيحياً، وحولها إلى رموز مسيحية، لكنها أيضاً قبطية مصرية.

كذلك رسم الفنان القبطى، عيون القديسين متسعة تعبر عن الطهارة والنقاء والبراءة والصفاء الروحى، والصراحة، مما كان واضحاً فى الرسوم المصرية القديمة على الآثار فى المقابر والمعابد، فاحتفظ بها الفنان القبطى فى رسمه للمسيح له المجد وللعذراء القديسة مريم، ولسائر القديسين.

فى الموسيقى

والأمر بعينه فى الموسيقى. فالموسيقى القبطية المستخدمة فى الكنيسة القبطية هى بعينها الموسيقى المصرية القديمة، احتفظ بها الأقباط فى عبادتهم، فى مختلف المواسم، فى الأعياد والأصوام، وفى المناسبات المفرحة والحزينة. نعم إن الكلمات والألفاظ مسيحية، أما الأنغام فهى

مصرية فرعونية. ولذلك تعد الألحان القبطية المستخدمة اليوم فى الكنيسة القبطية أقدم تراث موسيقى مصرى شرقى.

ومما هو جدير بالذكر أن لحن (بيكثرونوس) PEKTHRONOS الذى يرتلونه فى الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة العظيمة ومعناه (عرشك يا الله إلى دهر الدهور) وبه يزفون المسيح الرب إلى القبر، ومن القبر إلى العالم السفلى، ليقتحم الجحيم ولينقل آدم وبنيه إلى الفردوس، بعد أن تمم المسيح مهمة الفداء لآدم وبنيه بالصلب.. هذا اللحن هو لحن (زفة) وهو من حيث أنغامه الموسيقية كان يزف به الفرعون عند موته، فينزل من القبر إلى مركب الشمس ليدور مع الشمس فى الخلود، والحياة الدائمة.

كذلك لحن (جولجوثا) GOLGOTHA الذى يرتلونه فى يوم الجمعة العظيمة بعد صلاة الساعة الثانية عشرة، وهم يدفنون صورة المسيح المصلوب، كوسيلة إيضاح لدفن جسد المسيح بعد إتمام عمل الفداء بالصلب، هو بعينه اللحن (من حيث الموسيقى والأنغام) الذى كان يستخدمه الكهنة الجنائزون فى مصر القديمة فى إثناء تحنيط جثة الملك ودفنها.

وغير ذلك كثير مما يشهد بأن الكنيسة القبطية فى موسيقاها وطقوسها امتداد لحضارة مصر القديمة فى الفن، وفى غير ذلك من مظاهر الحضارة المصرية القديمة.

في فن العمارة

ويمكن أن نقول مثل ذلك أيضاً فيما يتصل بفن العمارة. فالخصائص التى كانت تتميز بها العمارة الفرعونية فى المعابد، احتفظ بها الأقباط فى بناء كنائسهم وأديرتهم القديمة ويمكن التعرف على بعض تلك الخصائص، ومنها سمك الحوائط وقلة الفتحات والنوافذ، ورموز الزخارف الظاهرة على الأفاريز، والنوافذ المغطاة بالزجاج الملون، بحيث يتوافر للكنيسة الضوء الخافت الذى يثير الخشوع والرهبة، والانحصار فى الصلاة كما يعكس الصور الدينية بأسلوب روحى يأخذ بمجامع القلب.

كذلك يمكن أن يقال عن أفانين الأدب. وما اشتملت عليه المخطوطات القبطية من آثار الروح المصرية فضلاً عن العلوم المصرية الروحية والمادية.

والخلاصة إن الكنيسة القبطية مجد مصرى قديم، تراثها تراث مصرى قديم، فيها يجد الباحث والفنان واللغوى والأديب، الرابطة الروحية الجامعة بين التراثين: المصرى القديم والقبطى المسيحى. كما يجد فيها الامتداد والإستمرارية.

وفى كل هذا وذاك يتبين للدارس والباحث أن الكنيسة القبطية ليست مستودعاً فقط للتراث المصرى القديم، وإنما هى أيضاً امتداد له واستمرار على الخط القديم وبناء شامخ وصرح مشيد على ذات الأساس الخالد والتراث الثمين.

الفصل الثامن

عيد النيروز وتكريم الشهداء

لعل التكريم الأصيل والذكرى الدائمة الطيبة لشهداء الأقباط هو التقويم القبطى الذى نحتفل فى يومه الأول بعيد النيروز. الذى احتفظ به الأقباط وفاء لشهدائهم. لم يقيموا النصب التذكارية أو التماثيل. لأنهم استودعوهم بين يدى الرب الذى أحبوه وذاقوا الآلام والعذاب من أجل اسمه.

وللشهيد مكانته فى الطقس الكنسى بعد القديسة العذراء مريم وبعد الطغمات السمائية وبعد الرسل نجد مكانتهم قبل أعاظم القديسين والبطاركة حتى ولو كانت حياته قبل شهادته فى درجة الموعوظ ! لأن سفك الدم أُعتبر أيضاً معمودية بأعمق ما تعنيه المعمودية كصبغة وشركة فى موت المسيح!

والتاريخ الكنسى المبكر يحتفظ لنا بصور رائعة عن تكريم الكنيسة لشهدائها حيث يعتبر الطقس الكنسى أن يوم الإستشهاد بالنسبة للشهيد هو يوم الميلاد الحقيقى له أى يوم الميلاد السمائى الذى فيه يبدأ الحياة الأبدية الحقة.

وفى اهتمام الكنيسة بتكريم ذكرى شهدائها رتبت فى يوم ذكرى الشهيد طقس الخدمة الكنسية كله لتكريم شهادته من تسبيح وصلاة وقراءة ووعظ ثم تقديم الذبيحة الإلهية التى تعتبر قمة التعييد والتمجيد وفى العصور الأولى أقامت هياكل صغيرة تحوى أجساد شهدائها وتسمى هذه الهياكل أو الكنائس اسم (مارتيريم ـ Martyrium) أى مكان الشهادة.

التشفع بالشهداء

الكنيسة تعتبر شهداءها شفعاء لها يتكلم دمهم أمام الله أفضل من هابيل الصديق، وبقايا أجسادهم ذخيرة أغلى من الذهب وأكرم من كل زينة وجمال وبهاء...

فالكنيسة مهما كانت صغيرة ومظهرها فقيرة ولكن إن كانت تحتفظ جسد شهيد فهى تفتخر على أعظم كاتدرائية فى العالم. حتى ولو حيطانها من طين لأنه افتخار شهادة بالرب مختمومة بالدم.

ولقد مرت الكنيسة فى زمن كانت لا تحتسب أى مذبح أنه جدير بالتكريس إلا إذا كان يحوى جزء من جسد شهيدا وكان الكاهن الذى يعين على مذبح شهيد يعتبر أعلى رتبة من أى كاهن آخر كان يسمى

(مايتراريوس) أى خادم شهادة.

والتشفع بالشهداء عقيدة إنجيلية تمسكت بها ومارستها الكنيسة الجامعة منذ البداية إيماناً منها بالصلة القائمة فعلاً بين أعضاء جسد المسيح الواحد، بين الذين ما زالوا يجاهدون على الأرض والذين انطلقوا ظافرين إلى السماء.

وفى زمن الإستشهاد كان ينظر إلى هذه الأعداد الكثيرة أنهم سفراء من الكنيسة المجاهدة على الأرض إلى سيدها فى السماء، وكان إخوتهم يسألونهم أن يتذكروهم حيثما يمثلون أمام المسيح.

+ ويقول القديس غريغوريوس الثيئولوغوس (الناطق بالإلهيات) عن كبريانوس الشهيد.

(إن تراب كبريانوس مع الإيمان يمكن أن يفعل كل شىء ويعلم ذلك كل من خبر هذا الأمر).

+ والقديس غريغوريوس أسقف نيصيص فى كلامه عن الشهيد تادرس المشرقى، وكان جسده مدفوناً فى نفس الكنيسة يقول (لقد ذهب إلى الله، وهو مازال يُخرج الشياطين، يطلب عنا من الله الأشياء النافعة لنا، لقد جعل هذا المكان قاعة للإستشفاء من أمراض متنوعة).

+ والقديس باسيليوس الكبير يتكلم عن شهداء سبسطية الأربعين فيقول موجهاً كلامه لشعبه: (إنكم تبحثون دائماً عن واحد يصلى عنكم، هوذا أربعون. إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسم الرب هناك يكون الرب حاضراً) وإن كان هناك أربعون . فمن يشك فى حضوره؟! هؤلاء هم الذين يحرسون بلادنا كخط دفاع...

+ ويقول القديس أوغسطينوس: (نحن لا نصلى عن الشهداء فهم قد أكملوا حبهم للرب أكثر من أى إنسان، نحن نسألهم أن يذكروننا) .

كيف عرفت الكنيسة حياتهم واستشهادهم؟

لقد عرف المؤرخون تاريخ الإضطهادات من واقع سجلات المحاكم الرومانية، ثم من سير الشهداء ومذكراتهم التى كانوا يكتبونها فى سجونهم أحياناً، ومن مراسلاتهم التى كانوا يتبادلونها مع زملائهم فى المحنة. وكذلك ما سجله كتاب سير الشهداء أمثال يوسابيوس القيصرى، ويوليوس الأقفهصى الذى نال لقب كاتب الشهداء وكان يعتنى بأجساد الشهداء القديسين فيكفنها، واستخدم معه ٣٠٠ تلميذ لكتابة سيرهم من بينهم اثنين من أولاده، ولقد خلد تاريخ الكنيسة هذا العمل المجيد الذى قام به هذا المؤرخ القديس، فكثيراً ما عرض حياته للخطر لإنقاذ

جسد قديس أو تكفين قديس آخر حتى نال إكليل الشهادة مثلهم فى يوم ٢٢ توت فى بداية عهد الملك قسطنطين قبل إعلان مرسوم ميلان للتسامح الدينى سنة ٣١٣م ولذلك تهتم الكنيسة بعمل التذكارات والإحتفالات للشهداء القديسين فى أيام استشهادهم وتحرص على قراءة سيرهم من السنكسار، وبناء الكنائس على اسمهم، وتسمية أولادنا بأسمائهم أو بأسماء بما اتصفوا به من صفات جليلة عُرفوا بها كل ذلك عملاً بقول بولس الرسول: "انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم" (عب ١٣ : ٧).

الفصل التاسع
وكان الإستشهاد شرف وانتصار

أولاً ـ في الإستشهاد كرازة:

+ قد لا أكون مبالغاً إن قلت أن الإيمان المسيحى انتشر باستشهاد القديسين أكثر مما انتشر بتعليم المبشرين. فالدماء روت بذار الإيمان. فصارت دوحات عظيمة استظل بها كثيرون.

القديس أوغسطينوس

+ ها أنت تستطيع أن ترى بوضوح أنه حينما تقطع رؤوسنا، ونصلب ونلقى للوحوش المفترسة ونقيد بالسلاسل ونلقى فى النار وكل أنواع التعذيب. إننا لا نترك إيماننا بل بقدر ما نعاقب بهذه الضيقات بقدر ما ينضم مسيحيون أكثر إلى إيماننا وديانتنا باسم يسوع المسيح.

+ إن الكرام يقطع أغصان الكرمة التى تحمل أثماراً. وهذا ما يحدث معنا. فالكرمة التى غرست بواسطة الله مخلصنا يسوع المسيح هى شعبه.

والعجيب أن الرب يسوع أرسل تلاميذه كحملان بين ذئاب (لو ١٠: ٣) كيف هذا؟

ألا يخشى الله أن تفتك الذئاب بالحملان؟ كلا أنها لا تفتك بها. بل أن ما يحدث هو العكس فالحملان تحول الذئاب إلى حملان مثلها.

يوستينوس الشهيد

+ تأملوا يا إخوتى ماذا يفعل يسوع أن ذئباً واحداً لو أُلقِىَ بين غنم كثيرة. ولو بلغوا عدة آلاف لارتعب القطيع كله على الرغم من عدم قدرة الذئب على أفتراس الكل. لكن الكل يخافونه. فأى مشورة وأى تدبير وأية قوة هذه حتى لا يبث الله ذئباً واحداً وسط الغنم بل يرسل غنماً وسط الذئاب أنه لا يقترب بهم ونحو الذئاب بل فى وسط الذئاب. لقد كان هناك قطيع من الذئاب وقلة من الغنم. فعندما أفترست الذئاب الكثيرة الغنمات القليلة تحولت الذئاب إلى غنم.

+ لقد كسب المسيحيون الأوائل للمسيح كثيرين. وقد نالوا هذا

الكسب بموتهم أكثر مما نالوه بحياتهم أو بمعجزاتهم. وكما ينمو الحشيش أكثر كلما يجز.

هكذا المسيحيون كانوا ينهضون بقوة جديدة كلما كانوا يحصدون.

القديس أوغسطينوس

ثانياً ـ فى الإستشهاد شرف وقوة:

+ لقد انذهلت الجموع المشاهدة للحرب السمائية الحرب الإلهية. الحرب الروحية معركة يسوع لقد رأوا خدام يسوع ثابتين فى جرأة بفكر مستسلم محتملين سيوف العالم. لكنهم مؤمنون ومحصنون بأسلحة الإيمان.

+ لقد كان المعذبون أكثر شجاعة من معذبيهم. إذ غلبت الأعضاء المضروبة الممزقة الآلات التى ضربتها ومزقتها. لقد كانت السياط تكرر الجلدات بكل ما فى قوتها. لكنها لم تقدر أن تهزم الإيمان غير المنظور. لقد كان الدم يتدفق ليطفىء لهيب الإضطهاد. ويبطل نيران جهنم ويروى بذار الإيمان المسيحى.

كبريانوس الشهيد

+ كان يمكن أن تصبح المسيحية شيئاً آخر غير ما نراه.

لولا أولئك الذين ثبتوا حتى الموت وقدموا حياتهم ثمناً لحبهم لمسيحهم. لقد بذل يسوع دمه فى أورشليم عن حياة العالم. والخليقة كلها. وإذ آمن الشهداء بهذا خضبوا بدمائهم أرض المسكونة كلها. تعبيراً عن حبهم ووفائهم.

مثلث الرحمات الأنبا يؤانس أسقف الغربية

ثالثاً ـ فى الإستشهاد ألم. ومع الألم بركة:

لا تجعلوا إنفصالكم عن العالم يخيفكم. فلو أمعنا النظر فى أن العالم هو فى الواقع السجن الحقيقى. فستعرف أنكم لم تدخلوا سجناً. بل بالأولى خرجتم من سجن. وإن كنتم تنتظرون المحاكمة كل يوم. لكنكم ستدينون القضاة أنفسهم... لا يهم أين تكونون فى العالم أنتم الذين لستم من العالم.

+ بالنسبة للمسيحى... فإن السجن يقدم له نفس الخدمة التى تقدمها البرية للنبى. لقد قضى ربنا يسوع وقتاً كبيراً فى الوحدة. حتى ما يكون أكثر حرية فى الصلاة وحتى ما يتحرر من العالم.

ولقد كان فى خلوة جبلية أيضاً حينما تجلى بمجده لتلاميذه.

هل لنا أن نسقط من حسابنا كلمة سجن. وندعوه مكان خلوة.

ولو أن الجسم مغلق عليه. والجسد محبوس لكن كل شيء مفتوح أمام الروح إذن بالروح تجول خارجاً. بالروح تمشى غير واضع أمامك الممرات ذات الظل أو ذات الأعمدة. بل الطريق المؤدى إلى الله.

وبقدر ما تكون خطواتك فى الروح دائماً. بقدر ما تكون حراً من القيود حينما يكون العقل محلقاً فى السماويات. لا تشعر الساق بالسلسلة التى تقيدها.

العلامة ترتليانوس

+ فى أوقات الإضطهاد تُغلق الأرض أمامنا. لكن السماء تُفتح. ضد المسيح يهدد. لكن المسيح يعين. الموت يغلبنا. لكن الخلود يتبعنا. العالم يتنحى عنا والفردوس يقلبنا.

تنتهى هذه الحياة القصيرة لتبدأ الحياة الأبدية. يا له من شرف. يا له من سلام. يا له من فرح أن نرحل هكذا فى مجد وسط الإضطهاد والضيق ونغمض أعيننا عن العالم والبشر. لنفتحها فى وجه الله ومسيحه. يا لها من رحلة قصيرة.

القديس كبريانوس الشهيد

رابعاً ـ فى الإستشهاد عفة وطهارة:

+ تاريخ الشهداء حافل بأمثلة رائعة لأبطال الطهارة والعفة الذين فضلوا أن يقابلوا الموت عن أن يدنسوا أجسادهم فالوثنيين وحكامهم تملكت عليهم شهوة دنسة بصورة مزرية مخجلة وكانوا يندهشون لطهارة المسيحيين والمسيحيات على وجه الخصوص. اللائي لم يستطعنَ مجرد الإصغاء إلى تهديد الحكام الوثنيين بهتك أعراضهنَ فتحملنَ كل أنواع التعذيب والقصاص المميت.

يوسابيوس القيصرى

+ لم يكن النساء أقل من الرجال بسالة فى الدفاع عن تعاليم الكلمة الإلهية. إذ اشتركنَ فى النضال مع الرجال. ونلنَ معهم نصيباً متساوياً من الأكاليل من أجل الفضيلة.

وعندما كانوا يجروهنَ لأغراض دنسة. كنَ يفضلنَ تسليم حياتهنَ للموت عن تسليم أجسادهنَ للنجاسة.

يوسابيوس القيصرى

خامساً ـ فى الإستشهاد عظمة وانتصار:

+ حينما ننظر الشهداء فى كل مكان مهتمين. أتين من كل كنيسة ليقدُموا للمحاكمة. نرى فى كل منهم الرب نفسه يحاكم. كيف نشك فى ذلك.

حينما نعرف من كلام الرب أنه ليس مجرد إنسان عادى هو الذى يُلقى فى السجن. ليحتمل البرد والجوع والعطش. بل هو نفسه الذى يتألم فى شخص المتألم.

ومن هنا فإنه حينما يُحكم على أى مسيحى لمجرد انه مسيحى. وليس لسبب آخر.

أو جريمة أخرى فإنه يسوع المسيح هو الذى يحُكم عليه فى شخصه. وتبعاً لذلك فإنه يحكم عليه فى كلِ مكانٍ فى الأرض حينما يتألم أُناس على اسمه.

العلامة أوريجينوس

+ ليس شيء أقسى من الآلام الجسدية (فى عذابات الشهداء) لكن بسبب الفرح بإلههم فإن مالا يمكن للآذان أن تحتمل سماعه. يصير بالنسبة لهم محتملاً بل ويشتاقون إليه فإن أخذت شهيد من على الصليب أو من أتون النار. ولكن به أنفاس. فستجد فى داخله كنزاً من الفرح لا يعبر عنه.

القديس يوحنا ذهبى الفم

سادساً ـ كيف نشهد للمسيح:

+ هل تظن أن الصلب على خشبة فقط هو طريق الشهادة؟ لو كان الأمر كذلك لحُرم أيوب من إكليله. لكنه تألم أكثر من شهداء كثيرين. لقد قاسى الآلام من كل جانب.

من جهة ممتلكاته وأولاده وشخصه وزوجته وأصدقائه وأعدائه وحتى خدمه.

لأجل هذا أقول أن أيوب كان شهيداً.

القديس يوحنا ذهبى الفم

+ المسيحى مجند للشهادة للمسيح بمحبته. وبأعماله الحسنه وبمجاوبة كل من يسأله عن سر الرجاء.

+ إن المسيحية جاءت لتخلق شباباً وشابات يغلبون العالم بالصليب حتى الدم.

+ المسيحي هو إنسان عندما يكره الخطيه يتركها إلى الموت. ليس هناك ميوعة في حياته. لأنه لا يعرف أنصاف الحلول.

+ المسيحي وكنيسته رغم أنهما ليسا من هذا العالم ولكنهما ينفعان العالم كثيراً. فالمسيحي نور والنور يبدد ظلمة العالم.

المتنيح القمص بيشوى كامل

المراجـــع

١ ـ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

٢ ـ جريدة وطنى لنيافة الأنبا غريغوريوس.

٣ ـ جريدة وطنى للقمص متى عبد الملك.

٤ ـ المفكرة الطقسية لسنة ١٧١٤/١٧١٥ش للمؤلف.

٥ ـ النتيجة القبطية السنوية ١٧١٤/١٧١٥ش

جمعية النشأة القبطية الأرثوذكسية.

٦ ـ مجلة اليقظة للمؤرخ الأستاذ لبيب قوسة.

٧ ـ جريدة وطنى بقلم الدكتور سليمان نسيم.

٨ ـ جريدة وطنى بقلم المرحوم الدكتور منير شكرى.

٩ ـ جريدة وطنى بقلم نجيب كيرلس المنقبادى.

١٠ ـ جريدة وطنى بقلم الدكتور مكارى أرمانيوس.

١١ ـ جريدة وطنى لسنة ١٩٦٣ الأستاذ فوزى أندراوس

١٢ ـ رسالة المحبة الأستاذ جميل عزيز

الفهـــــرس

صفحة

- أعياد مسيحية
- عيد النيروز


رأس السنة القبطية
بشروق شمس ١١ سبتمبر من كل عام يبدأ عام جديد للشهداء فيحتفل الأقباط فى هذه المناسبة بعيد النيروز - رأس السنة القبطية - ذاكرين أجدادهم الشهداء الذين سطروا بدمائهم تاريخ هذه الحقبة مناهضين السلطة الرومانية الغاشمة التى أذاقتهم من العذاب ألواناً فبذلوا أرواحهم رخيصة فى سبيل العقيدة أن أعطوا الأجيال دروسا فى الإرادة لا تلين والعزيمة التى لا تقهر. فضربوا بذلك أروع الأمثال فى الصبر والاحتمال والذود عن الحق وفازوا فى تاريخ الشرف والبطولة بأمجد الصفحات.
مكتبة المحبة
٣٠ شارع شبرا - القاهرة - ت وفاكس : ٥٧٥٩٢٤٤ - ٥٧٧٧٤٤٨
تشغيلة رقم ٦٠٤٩
جنيه ٥ قرش ٢٠٠
1060052